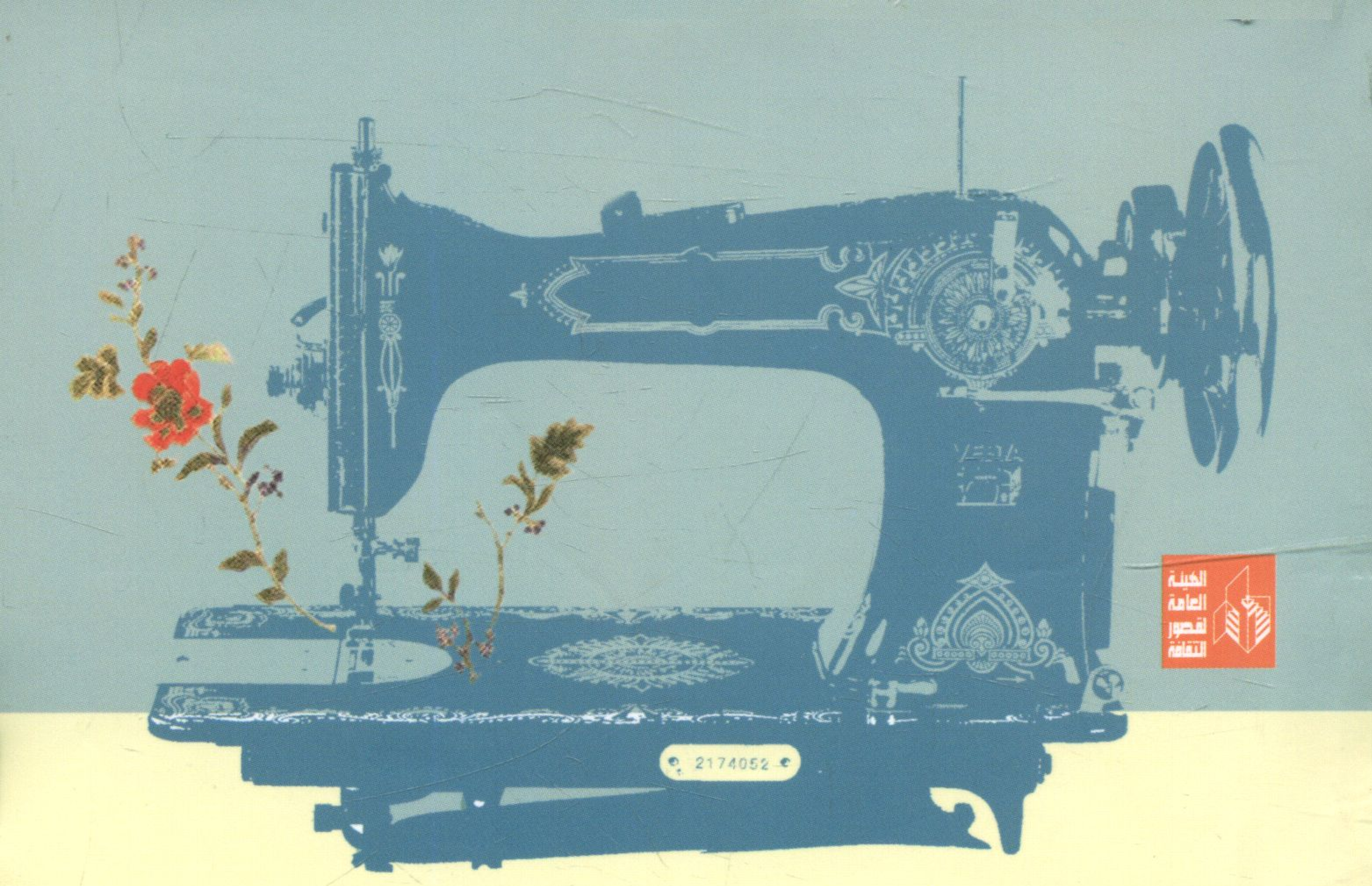


نداء، وقصص أخرى

مجموعة قصصية

سعاد فهد السعيد

سلسلة آفاق عربية

171

نداء وقصص أخرى

سعاد فهد السعيد



سلسلة
آفاق عربية

تصدرها
الهيئة العامة لقصور الثقافة

(171)

سلسلة شهرية تعنى بنشر أعمال الأدباء العرب

• نداء وقصص أخرى
• سعاد فهد السعيد
الهيئة العامة لقصور الثقافة
القاهرة 2014م
• تصميم الغلاف:
أحمد اللباد
• المراجعة اللغوية:
ياسمين مجدى
• رقم الإيداع: ٢٠٢٨٣/ ٢٠١٤
• الترقيم الدولى: 978-977-718-899-9
• المراسلات:
باسم / مدير التحرير
على العنوان التالى: 116 شارع أمين
سامى - قصر العينى
القاهرة - رقم بريدى 11561
ت: 27947891 (داخلى: 180)

• الطباعة والتنفيذ:
شركة الأمل للطباعة والنشر
ت: 23904096

نداء وقصص أخرى

القسم الأول

إلى أمكنة ستغادر بعد الثريا

تحت نزف كف المكان الخشنة وعرق العالم المتخمر في قنينة
ليلة تنكر وجه القمر للأرض وتعكر البحر بجثة جرم سماوي
تندس في أذنيك المتخمتين بألياف الحديث الذاوي
أصوات الليل المائجة وبحة الريح المانحة أطرافك التمايل
كم ظلام سينمو في صباحاتك تنضح به شهب نفسك وتقدح
غاوية دمك المتصابة
كم ربيع سيغادر سحنتك المسكونة بجفاف الصمت العاثر حالما
تلج ، لتحطم دائرة النور المعرية أجسادهم المأسورة في أقماط
الخطيئة.

رحى

حين تنيخ بصتك الداجة المشغوفة بالعميم على خسف أحذيتهم

الهادرة باللعنة الضاغطة فلاة صدرك

تختض روافد روحك تأخذك الغفلة

في مروج العمر الطمي الموحل بالغرين

والسؤال المعقود النسيج ينساح في قعر أوهامك منتفا غاصا مبتور العلامة

خافقا بجناحي بعوض

في رحاب الشرود الذي يشق وجه النهار تنشرخ تنهدات السنا الناعس وتجول بك

الريح في مسالخ الشمس والحلم الجنين

على رأسك العاج بقتر الليالي تحط بومة الليل ترقب ذكرا قادما من عراء السنين

واليبس المدجج ببرق الخريف يدب جفلا في الهجس الخضل

روحك والمكان انحسار وصدى لجعجعة الأيام.

يا رأسا تطرق الصخر

في دعة ينفض نهاره من الساعات ويبصق لليوم ركود الأمس
شاخصا يركن في غيهب الماعون مجدلا الأصابع ضيق ذات اليمين
يرجف الجوع والضيق والوجوه
سيد المتأففين الضحى يتصهد قبابا من جمر المعابر ناشرا صداه بشق آذان
الأرض والشجر والجالسين
أية بهجة تترنح بها جفون الآخرين وفم الأرض يستقبل رغوات لعابهم الملح
يذوب في خيالك البهاء والنهار طلاء من زيت الشمس يلطخ حلم عينيك المضللتين
بالأتربة والأسى والجروح
تلفلفك الأنفاس الثلج حين فاضت أملاحك في غياب الظلال غير أن الليل يرقب
خطاك الساخنة ويغتلس نظرتك الموسومة بالأرق.

ينحني الضوء أينما حل

- نافذة خشب -

في البيمارستان منتوف الحاجبين يقود عشرات البهاليل الملتفين بأكوام الصوف المتقلدين لافتات لا لعالم البازكوما.

- نافذة حديد -

في السجن مغطى الرأس راخيا ناصيته للعالم القابض شفتيه، والبحر المندلق في مسام الروح إذ لا مرشح لملوحته إلا آثار السياط . إن تهوَ القدمان تهوَ الروح، هذا ما وجد مكتوبا على الجدار.

- نافذة طين-

في المقبرة تنفلت الروح نافضة الجسد يتمدد وحيدا تحت كتل التراب عاريا لنخلة تغرس جذورها في اللحد حيث الشمس تصبغ لونها بالاخضرار.

- نافذة زجاج -

في الحلم يفر الهواء حيثما تهبط الروح في ركن قصي تحوك الصوف وتتذوق طعم الملح والبلح.

الفصول الخمسة للتوحد

- الفصل الأول -

تهاويت قطرة اضطراب سالت من فم الأفق وتغـيبت أرضا مسـتأجرة للحصاد. تفتقت سـنبلة عارية فيها متسـع لنخر السوس وتهميش أسنة المحراث.

- الفصل الثاني -

سـاعة أسـرج الضوء فتيل العـين الخافتة بالحسرة رشقة عابرة من ظلام المولد ترشـق نافذة الروح بسعال الكآبة. حجر يلهج بالجفاف يستمطر شق الكاحل نهاية كل باب.

- الفصل الثالث -

تحـت مظلة نجـم مسـفوك الضيـاء. فـي سـهو أحصنة الرابحين تنفض عـن كتفيك سوءة شارة قرمزية.
من مسام سأم الروح تفور الأتربة لحظة توحدك بالريح.

- الفصل الرابع -

مزمجـرة تعـبر اختناق المكان. تحل مـن الذاكرة قيد الدرب الأعمى.. النافذة المهمشة بأكف الفصول.. الدار التي

قضى نحبه في مهدها الحنان. هوجاء تعصف بالحمام الهادل في هطول الهجوع.

- الفصل الأخير -

حبة قمح تعج بها الريح بلا عواء.. بلا زئير.. بلا دوي تجتازبها المدن والقرى والصحاري لتزرعها بعيدا عن أسنة المحراث.

ميلاد قدم الموت

آب ينفرد نسـيجا مزركشـا بوجوه موتاه لائلا يبز في حجرات مؤثثة بسـكت يهل من تلويحة الراحلين دندنـة من تراقي الفصول تأتيـه مبحوحة يراقص بها ظل الفـراغ من ركضهم يلتقط أطراف الظلال يربيه هيكلا في تربة معـتاط.

صلصلة في ظهره تنبت ريش الخيال، والسوسـنة في أرضه لجت بسرها تحت عـري قدم راعـفة بالأتربة.

حبة الشعير

في منعطف الحي المصتك بقلعة ثمود غرب ساحل البحر الأحمر أربع نساء تقاسمن الحزن الشاحب، خامستهن مستكينة تلبس خفايا الزمن، في الطابق الغاص بالضباب السابح في الندى مازال صاحب ماركة الأسد فاردا جناحيه يرمقهن من النافذة بعيني قط تتبالص في الظلام وتنطفئ في السفر على رمل الطرقات ينثر لهن حبات الشعير كالحمام يلتقطنه. في كل ليلة تموت النساء عند آخر حبة شعير تغوص في التراب. نسيم بحري مسائي مع خمس رسمات للائي افترشن التراب كافية لتنشيط عضلات ما بين عيني الرجل وشفتيه قبل أن يمد يده سادلا ستار النافذة وتاركا آخر حلقة تبغ تتطاير ترسم القلعة والنساء المتطايرات.

زبد الزهو

تضع أجنحة من الزهو، تقف في أعالي الجبال تلامس غيمة، قالوا عنك شقيق نجمة، قنديل علاء الدين بحوزتك. إبريق على بابا بين يديك. تسبح في حبر الزيف تغرق في الزيف، تمد يدك . تحس بدغدغة، تقبض، يخرج من بين أصابعك زبد الزهو.

رؤيا

الأفق خال من رفرفة العصافير يوحي بقدوم ظلام يكفن ضحى المدينة وهبوب رماد يخمر سعف النخيل. تصطف الذئاب تشيع ضياء القمر قبل مولد الشفق.

لفروة رأسي تتجه أشعة الشمس الساقطة نحو الأرض. تغوص قدماي في طين المقابر يختالني طيف روح تستغيث وصدى تكبيرات تقيم صلاة الجنازة في صخب النفس ينسل من الجسد القرينان أحاول دفن أحدهما تحت التراب.

نعوش للروح وللشمس والطيور

مجنون يتذمر بزوغ القمر في كل أرض. هنا في مدينة نعش الشمس في كامل قواي العقلية أتوسد القمر. أغسل من شلالات ضوئه. أشرب من بحيرة على صفحتها ينعكس وجه القمر.

أيتها الروح الحالمة تتبعي أثر قدم تتوجس مولدا للتوهج للضياء لانسلالات النور تفتش عن طيف يضوي عن وهم ينير نهارات الظلام ويقتلع غابات الاضطراب.

أيتها الروح تصنعي الصمود كبيت قش تعاركه الريح . تؤرقه لمسات الشتاء نهايتك لن تكون أفضل من تهاوي صغار الطيور من غصون الشجر.

صباحية الوداع

نهاركم يرف مكحول الناعسات والليل فأس يشطر إكليل الشمس فاغرا فاه رائقا يسف نهر الضوء. من شرفة الوقت تراق حلكة اللحظة الممعكة بعطب الخريف الموشوشة بصخب عقعق ينخر هامة البياض. الريح فك يقضم لمعة الأوراق. مَن صلصل هزة الفوانيس صورا للمغيب؟! وأطرف عيني الصحو بأجنحة خفاش مغتسل بانهراق السواد؟! آلت آهة الإعتام المسوسة تمخر لجة الضياء.

أزهار البنفسج الرافلات خيوط العنكبوت أنشِدن للفراش صباحية الوداع وقطِّرن للذباب رحيق البراعم. ياشذرة الغواص انشري بريقك حبيبات تلقح الظلام، أطليقه كفًّا منتصبة ترض قبة الهجوع؛ لترشق زفرات الراكلين ضباب مداهم وجه المحاق.

موت كعكة الميلاد

صفار
يخفق فوق يافوخ الليل
يسيح الضياء
تطيل كعكتك
تقطع
تخمس
تسدس
تأكل
تفرغ عمرك في الفضاء الأسفل

بسمة نجم

مثلما يحتضن الليل النهار والظلام الضياء. مثلما يحتضن الجسد التراب تحتضن يد الطغاة أحشاء الأبرياء تعصر الدماء تحمل لنا عذابات الأرواح كالسحاب لتغرقنا بمطر البكاء وكأنها تجسد لنا بسمة طفل ببسمة نجم تشع قبل الانفجار.

وجدانيات محورة لنا

ذاك المســاء تجزأت السحب لتكتب اســم الإله ولاح في الأفق قوس قزح وفاحت رائحة الأتربة المبللة. رفعــت زهرة الأقحوان رأسها لتشكر الرب. شــاتي الصغيرة تثغــو كلما تراك منبه حيواني له ارتباط بمؤثر إنســاني. طيور الصرد تحلق فـي الأجواء نزوع بينها ورقصات لنا. شجرة الرند تنشر عبيرها إيحاء نباتي -يبدو لغـيرنا- وابتهاج بنا -يبدو لنا- ألفــاظ الطفولة: وكنات الطيور عتبات الأبــواب: الأخرى لهن والأولى لنا تلك انعكاســات تحمل في طياتها معاني شــتى. ذلك الكون كان مبتهجا لنا وتلك وجدانيات كانت محورة لنا ولنا فقط.

الريح تجبن

يثور موج البحر باتجاه الشـرق أغـصان الأشـجار تتمايل باتجاه الشـرق، لم أيتها الريح الهاربة تقفين عاجـزة عـن طرق أبواب مدائن الظلام خائفة من اجتذاذ رؤوس الشياطين؟ لم تغـفين عـند الحصون والقـلاع تلهثين بـين الحقول تركضـين خلف السـحاب تطرقين بابي تصرخـين تلطمين وجهي وكأني أنا ولا أحد سـواي يثير فيك وهج حر شمس الشرق.

وصية ريح لشجرة

هو عند النهر يحفر مجرى طويلاً. أقف حاسرة قبالته والهواء رفع رأسه وضحك. وضعت يدي على رأسي وبكيت... أراه عند ناصية الحارة يجرجر عدة الحراثة. بشعر يلفه غطاء. وقرطين لهما مع الخطو خشخشة. أخرج إلى الشارع. أحاذيه. يبتسم. أزيد الخطى. تعلو الخشخشة. يأتي نداؤها لا تلبسيهما في الحضور يهمس. أزيد الخطى. تعلو الخشخشة. أسمع بكاءها لا تلبسيهما إلا في الغياب ينادي. أزيد الخطى. تعلو الخشخشة. وتعصف ولا يكون لها وجود.

في مخزن الخشب عاطلة من الخشخشة وأذنين كانتا مخبأً -إذا دوث في الأفق طلقة - للسقسقةِ... أتذكر وخز قبلتِها. فحيح صوتِها شقّها اللاطمَ -شهر الخريف- وجهَ المنازل.

في مصنع الخشب أتذكرها: تجيء بين فصلين، جاءتني بعد انقضاء الشتاء وقراً يحفر الأرض جهة الشمال، شقها الأيمن أخذ وقتاً لينمو لفصل الاصفرار، وخزتْ جبيني بقبلة، ومسحت شعري وتساقط ورقات ضجّ المكان حولي وصفقت من على كتفي أجنحةٌ تقيم بسلام، أدركتُ طرحي حزناً على شعري المتهار» فواستني أنْ ذكرتني بالكرسي المكسور والبذور الغرقى، والورد المداس... وما برح حزني على شعري المتهار عوضتني بقرطين ثمر وأوصتني ألاّ ألبسهما إلا عندما يكون الطين خلواً من رسم الحذاء.

حالة

شاخت طيور الساحل ورمال الشاطئ مازالت تحتفظ بآثار خطانا ريحانة دفتر الذكريات ذبلت وعبيرها ماانفك يعطر صفحاته غبار اليوم يخفي بريق آنية الأمس ستار شفيف يغطي ماضينا يحجب الضوء ولا يخفي الملامح. ماض لم يبق منه سوى ذكرى تلاعبت بها الأمواج وارتج منها البحر وابتلعتها الأسماك لتلفظها بعد مئات السنين في مكان آخر.

الثكلى

نجوم السماء مجتمعة لا تضيء مثلما تضيء الشمس. نساء العالم مجتمعات لا يعطين مثل ما تعطي دانة. تستطيع الغوص في أعماق المحيطات ولا تستطيع الإبحار في أعماق دانة. دانة الأم.. دانة الثكلى.. دانة تجدها في كل بيت طين مهجور تجدها في ليالي الصحراوات المظلمات. دانة جارة الحزن جارة الهم. دانة جارة أكبر مقابر المدينة.

طاف بك منفاك

منذ أن تبجست شمس العمر المضوغ في تلظي الظلال واستئذنت أن دسي في كيس الوحشة سبائك ضياء والطائر النشال يتغلغل الرأس الأرجوحة فيما يتعلق الحلم المخمر بالشؤم المسمار في حائط الروح والارتعاش الجنح يتشبث في سقف الحنجرة.

منادة للذي غفا في قرار الصدر الفائض بالنفثات اليد المصباح تتسفل الذي بعثر رياحين القلب المعطرات صباحا محتجزا في أصلاب الظلام. وفجّر السيل في أعشاش العشق الطائر في بساتين الذاكرة. لم تزل القدم الجرار كحجر في وسط الطريق تنسحق في البعد المتغدف فجره بالغيمات حيث الأذن الضجر تصغي لأنفاس اللحظة المتسربلة بالشقاء. الكون الملثم بالسكون يتعطب من همهمة الجسد المتشعب عقمه في بواقي نهار يربي مساءً نابتا في الآفاق.

خيانة

قـادم مـن بلاد المـوت والميلاد يشـتهي حـلما مسـتحيلا. مـن ومض الشـمس يضمـر نارا يحـرق بها سـكون الحقـول، وفـي صمـت البـحر يمتطي موجا عـتيا يعـبر به ليل المدائن؛ تحت رجفـة العـشب يصيح الـوادي أيها الجبل: السـفح خان والعـشب من ظلك اسـتكان.

لقاء في البعيد

تمنيت لو عرفتك في العصر الأركي عندما كانت الأرض خاوية من البشر أو في العصر الديفوني عندما كانت قارات العالم متلاصقة. تباعدت بيننا المسافات وتشكل الناس من حولنا مع تشكل الأرض لقد غمر الرين القلوب كما غمر الماء اليابسة. سأحدد معك اللقاء في بطن حوت أو قيعان المحيطات.

الرواية

- باختصار -

أمي تنسى كعكة الأطفال في الفرن تحترق تستوقف الباص تصوّت: الموت؛ الموت في المغيب ليس فيه كعكة ولا جسم يحترق.

- صورة منحوتة -

أحمد من نار ودخان أطفأ دنياه بجرعة ماء، فاطمة مزقت حلو الثياب ودعت صحبها لولائم السماء، أمنا في الباص تربعتْ وصوّتتْ: في الغياب موت لا يصير فيه الجسم رملا للبناء.

- وصية -

أبونا ذاك المغيب في الخلود روى لنا قصة أحرقت الأيام منها أوراق الختام: بدأها: شققنا الأرض نثرنا الحب جلسنا نحسب الوقت وما درينا أن الأرض ملك الغير.

- بين أوراق التاريخ -

ردمنا عليه القبر وما فهمنا القصد (الأرض ملك الغير) جئنا بالتاريخ ومتى كان التاريخ يرتدي بردة القاضي.

- في أرض الغير -

مقاتل يحاذي كتفه كتفي يستوقفني تضغط كفاه الجسم من النعل إلى الرأس، يطبطب: هكذا دائما امض عازلا من ماء الوجه كي آذن لك بالعيش في الوطن، أسير في الأحياء أعرفها هذه مدرستي صارت مثل الجريدة لا تحسن النطق بالضاد، هذه الشجرة وأنا سواء في العمر مالها لا تجرؤ على منحي ثلثا من الظل، أتوه في الأسواق أهذا الشارع يفضي إلى البيت أم أن معالم البيت كالقلب دكت في الأرض؟ أدفع للبائع نقدا لا يحمل رمز الحراث ولا الزيتونة الخضراء المطحونة بالضرس.

- رسالة -

الشمس يا أمي لا تخترق ستائر المسرح . قصة أبي، أبطال أبي، ظل الميت يا أمي يحجب الإشعاع... أحمد عجوز البناية تنثر الزجاج على الدرج ضاحكة: دمك يجلو مرمر العتب... وطن أبي، بل قبر الميت يا أحمد ... قصة يا فاطم من أبي لا أنساها حكاها ولم يحسن النقل عمن رواها يسمونه < < جهل الجاهل > > بل ميراث الميت هذا... أمي.. أبي.. أحمد.. فاطمة؛ تحك الإصبع في المبرد أعيروني ظفرا.

عتمة سرمدية

تعود القوافل، تعود أنت، أسمع قرع نعليك، تتعالى خفقات القلب مع صرير فتح الباب، أراك ظلا أراك جسدا أراك رجلا، تحيني بقصيدة وهم، تهديني طيف حب تشرع السيف تقتل الشمس والقمر والنجم، تنصب المشانق لظواهر الشفق تحتويني أنت والظلام ودموع السحاب.

حلم

فوق ظهري شدّت عربة الزمان. عند أفول الشمس ألوذ بها إلى الوادي أهديها الريح تسيرها باتجاه الصحاري عند الشروق ألوذ بها إلى الشاطئ أهديها الريح تحملها صوب الموج؛ وفي كل مرة حبال من بقايا عربة الزمان تطوق عنقي تخنق نفس الليل وتعرقل سير النهار أعقلها برؤوس الصخر أشدها ينكسر الصخر وأتهاوى في دوائر الأحلام ويتناءى حلم منزوع الخطى ثم يتوارى تحت عجلات عربة الزمان.

احتفاء الذئاب

شمس أنا لا أشرق على وجهي الأرض في وقت واحد بقلب واحد لا يتسع لاثنين. كلما حاولت البوح تسرق الريح الهمس من شفتي وتثير الغبار في عيني متى تفيق وتكتحل بماء الورد وتختفي بي احتفاء الذئاب باكتمال القمر.

مبايعة

متلفعات بالمغيب يشهدن تلاوة الانسلاخ يباركن انغماس الشوارع في فزع الظلام يهدهدن نوافذ تتنفس نسائم أحاديث مرجومة والمتأبطون لمعة الأمواس يقصون أحذية الشمس سافكين السواد في بيوت تستأصل الغفوة.

صرصرة تتشحط بالسموق تسخل النخيل تدعك أجسادنا — مقدما- بالسدر المنقوع، مزلغبة تعشعش في السقوف المجوخة، في تحصد الظلال قامات تنكمش.. صور تتسلق الجدران تطوي وشوشة الشرفات، من عرائش الزيتون يقطر أفق مشيك بالانزلاق.

من سموات زيتية نتدلى منكسين الأصابع طامرين بالتأففات هاوية المدى.

والمتزملون لفائف لوعاتهم يحاذون الشفق تاركين البيعة للممرات المسدفة.

فصل من صباح المنذرين

- المشهد الأول -

في الترب نستريث الإظلام نهيج الديك مرتبكة في الخروج
تنسى الشمس دفأها فينا تفقص حمائمنا رطوبة تتهدل
تمتصها الأجساد دافقة تتسرب فوق التراب نطير البياض
خرجنا تركنا الصبح غصة في حنجرة الديك.

- المشهد الثاني -

في المدينة أقدامنا في الشوارع عيوننا مدينة تفتح
سقوفها للسحاب تشعل نخيلها في الظلام منتفة
تفرد الجناح؛ علمنا التريش أول مراحل الاحتضار.

- المشهد الثالث -

في حنجرة الديك؛ ثغاء والقطن حشو في آذان الرعاة.
رجال ما لم تعهد النساء زفرة ويد تهش الذباب. تكسّر
الخبز وضاع في نقر الغراب الفتات. وكنا قد عدنا نتذرأ
في التراب متناسين الصبح هناك معترضا حنجرة الديك.

جندي الصف الأول

- خطوة أولى -

ندخل فخار الجسد الذي ورث المساء عنا.

- خطوة ثانية -

هنا بين طرفي المسافة صمغ يراق، بذل تتأشب بالاخضرار، وفأر في تيه يتكور من ناشئة عشب تنشأ في ثغرات أرواحكم.

- خطوة ثالثة -

أيها المتخطي قبره قوّس ذراعك لنجم تأرب تبرقه على كتفيك، لأنا تلفها مجمدة في الحنجرة فصوت الموت قائدكم إلى الأسفل إلى الأعلى سر.

- خطوة أخيرة -

كل يتودّأ في الجبهة التي لا تغيض، حذاء تفقس في عفنته الزواحف، قبعة تزاوج عليها الطقس تحت الوهج تطبطب عليها أصابع المطر، حلم يخاط جوربا ترتديه قدم رطيء تضرب كفه مؤخرة الشمس.

القسم الثاني

شرق وغرب

تكسـر النافذة تتمدد عرضيا أسـفل جسـدي -سـاعتي الوحيدة لسعتها باطن قدمي- في الشارع كانت عن يميني، وعند مدخل المطار حين كنت أراقب رجلي أرنب ترجفان التراب كانت عن يميني أيضا.

في الطائرة أنتظره يأتي لابس المريلة بيده سلم وفي الأخرى فرشاة دهـان، أخيرا جاء عندمـا توقفت الطائرة لم أره لكن شـاهدت دهانه علـى النافذة، تفاجأت حين نزلت وشـاهدت دهانـه يصبغ كل المكان، عند مخرج المطار كان أنف الأرنب يدفع التراب إلى الأعلى.

بعد سبعة أيام وبعد أن تعاقب على المكان أربعة عشر دهانا اتخذت نفق الأرنب طريقا للعـودة، تماما عند (مدخل المطار) خرجت أنفض التراب، تعجبت فقد كانت عن يسـاري لكن عدت إلى رشدي فوجهي صوب المنزل ولو درت لكانت عن يميني.

ولجـت الغرفة ومازالت متمددة -ليس عرضيـا- بل طوليا تأخذ وقتا لتخرج حين تقصر ويناسب طولها طول الزجاج؛ تذكرت الأرنب وعرفت لماذا هرب وترك السلحفاة.

ابن وأب

يستيقظ يفتش عن زوجته ينفض الغطاء يدلي رأسه تحت السرير. يفتح غرفة طفليه. زاد قلقه. ينسى الزوجة. يسأل عن طفليه. يبحث خلف الستائر في حنفيات المياه. في أواني المطبخ. ينفخ خرطوم المكنسة. يخرج للحديقة يتجه صوب النخلة يقتلعها يفزعه وجه أبيه عنيفا يعيدها. يلتفت جهة السدرة يقتلعها ينحني مفتشا في تربتها. مباغتة يمتد إليه ذراعا أمه. يصلب عوده شفيقا يسقط السدرة . يتخبط في الحديقة تفجعه ثلاث نبتات جدد مغروسة. أدرك أن لا أحد سواه. أحس بدوار واخضرار يصبغ جلده. أسرع يقف بين السدرة والنخلة يحجبان عنه الحرارة ويمتص -أبدا- من جذورهما الماء.

قزحية تتسدس

لا أتعدى الإضاءة المرتسمة على الأرض المنبعثة من أعلى الباب المحاطة بمساحات واسعة من الظلام تكفي أنموذجا لأستاذ الجغرافيا يثبت بها كروية الأرض. لا أتبينه يقف وسط العتمات. أناديه: أين أنت؟ ! يأتي رده أنة داخل الظلام. أستدير صوب فتحة الباب تاركا تحديا بين عينيه وكتل الظلام ؛ تشعلانه أو يطفئهما في الطريق إلى المدرسة يدخل يده في حقيبتي يعيد عجن قمح الشطيرة. تتبعني قطرات حلوة تهيج ذباب الحارة: أدرك طعنة في خاصرة علبة العصير يتوقف منتصف الطريق يتبول جهة القبلة. يشق لنا بظفره شبابيك النوافذ نقفز منها ملته هو بنبش تحت أنقاض حائط. شق لم تلحظه في لسانه أمي. دائرة قزحية عينيه تتسدس في النظر إلى العميق.

خمسون عاما ونيف ومازلت أناديه. أخجل من طلب -وأنا أرى العاهة في رجله- دفع الكرسي خطوتين. أردد الطلب ومازالت أنة تأتيني وسط الظلام. خمسون عاما ونيف وعيناه عيناه يحيطهما السواد. شفتاه شفتاه يشققهما الجفاف. حجمه حجم الطفل الذي جلباه -قبل موتهما- والداي.

سار بي مسافات طويلة قبل أن تفلت يداه مقبضي الكرسي منحدرة عجلاته في تلك المساحات الأنموذج لأستاذ الجغرافيا مرقت قبل ارتطامي بكتل الظلام تفاصيل الحكاية «بعيدة أمي تقف، خلفها أبي: هذا أخوك تحت الأنقاض تحيط به الضباع»

أخطأت أمي لم تكن تحيطه بالخطر الضباع؛ كان هو ابنا للضباع.

سبعة أيام عقوبة

استقر تحت خزانة الملابس بعد دحرجة قاس فيها غرفة النوم، ظل القط المتمدد على السرير المتهم الأول في ضياع غطاء علبة أحمر الخدود؛ ولأن الغطاء خاصة الزوجة غض البصر. صار الزوج يهدد -فيما تقدم من الوقت- برمي القط السمين.

كل ما يضيع موكل إليه، هو في نظره صاحب سوابق؛ فشهادة الطفلة أنها رأته منقلبا على ظهره يقلب قلم الرصاص الذي حارت في طلبه ساعات، وتناثر مسحوق الغسيل كان بعد خروجه من الحمام لاعقا قطرات الماء المتقاطرة من الصنبور أدلة تدينه. كلما دافعت الزوجة طالبها النظر تحت الثلاجة.. تحت المكتب.. تحت السرير لتفقد المفقودات، يعير هروبه من الفئران، وتراجعه خطوات أمام الصراصير، لكنها طلبت ألا ينكر مطاردته الذبان طوال تسلط الشمس على الصالة وملاحقتها إلى خارج الحدود، تصمت إذ يردد «فناء البيت واسع.. دعيه يخرج.. خففي وزنه» لئلا تبيح سره مع قط الجيران.

اتهمـــه مـؤخـرا فـــي ضياع سـلـســلـة المفاتيح -رآه يقلبهـا بين يديه الممتليتين ويعـضـهـا مـن جانب فمه- قرر تأديبه وحبسه سبعة أيام.

فـي اليـــوم الأول والثاني أتقن تنغيم موائــه على مختلف الدرجات. في الثالث والرابع عرف طريقة صيد الحشرات. الخامس والسادس عرف كيف يبول على الجدران. في اليوم السابع كان يصفي حسابه مع قط الجيران.

أطفال الروضة يحتجون على المعلمة

حمامة.. حمامتان.. ثلاث.. طارت الأولى والثانية.. الثالثة في يد الجدة سمية..

الجدة سمية مع الحمامة الثالثة مع الخروف الأبيض والكلب ذي العين المنقوطة بالسواد والأرنب المرسوم على صفحة القمر داخل إطار اللوحة. ذهب الرسام الصغير وظلت خطوطه المستقيمة الخالية من الظلال، وألوانه الصارخة غير الممزوجة على الجدار.. سقط السقف.. سقطت الحيطان الثلاثة.. ظل الحائط الرابع وظل المسمار مغروسا به بكل قوة.. جاءت الجنود والدبابات والقنابل وظل الجدار وظل المسمار وظلت اللوحة. تسعة أشهر مرت على موت الرسام الصغير؛ تسعة أشهر والجيوش تحاول هدم الحائط الرابع. أعطى القائد الأمر بترك الحائط وعدم إهدار الوقت. الجدة سمية لم تحتمل الاهتزازات سقطت من اللوحة. بعد الجدة سمية لم يجد الخروف من يطعمه أكل أرضية اللوحة الخضراء. منظر الخروف بعد أكل الحشيش جعله يبيت في بطن الكلب. في اليوم الثلاثين من الشهر تزحلق الأرنب من اللوحة. احتج الأطفال على المعلمة وطلبوا إعادة القصة بإحياء الرسام الصغير.

لن تتكرر.. لكنك اعتدت

معجون الحلاقة يغطي وجهك، وقبل تمر وفرشة الأسنان خنجر يدمي لثتك.. كم الساعة الآن؟! تأخرت كثيرا.. ليتك تنتبه إلى الماء.. صفات الماء أن لا رائحة ولا طعم ولا لون له؛ صفات كلها متحققة في مائي.. ليتك تنتبه للباب المفتوح؛ فيكون سبيلا لترى الماء.. الوقوف على حافة الباب طريقة (نحن هنا).. فعلا نجحت... آي أصابعك كالنشاب، تكفي إصبع واحدة لدفعي.. الماء.. الماء.. حسنا الباب.. الباب.. اقفل الباب، لم تتركه مفتوحا، البارحة ليلا عدت مجهودا؛ فنسيانه مغفورا.. لكن الآن؟!! لن أخيب ظنك بي.. ليتك جددت الماء.

لا عدت سالما، كذا تخرج ومائدة طعامك كلوحة فان جوخ (مائدة الطعام) سؤال واحد -لو أني أقف معك في المحكمة - لم تدلق كوب الشاي على المائدة كل مرة.. صفان من البعوض؛ صف محتقن بالكافيين يخرج من قعر كوب الشاي، وصف حول مائي يرقص (السامبا) احتفالا بدمي؟! المحكمة ستحكم بالإعدام على البعوض وإطلاق سراحك.

هيه، يا من أسفل الشقة.. يا من على الشجرة.. من يأتي يجدد الماء؟! باب الشقة مقفول، لكن النافذة مفتوحة هأنذا أقف عليها، باب القفص مفتوح أيضا.. تطيرون من الشجر.. تدخلون من النافذة.. تسحبون صحن الماء.. تضعون غيره.

الماء

توقفت وسط الصحراء تحت لهيب شعاع الشمس، بذلوا قصارى جهدهم لبث الحياة فيها دونما رد. غابت الشمس.. حل الظلام.. تبادلوا الحلول فما وجدوا مخرجا!! اتفقوا على السير وسط الصحراء عسى أن يجدوا الطريق المعبد . نهضوا من فورهم يتخبطون في كتل الظلام. مع ولادة شمس يوم جديد كان التعب قد التبسهم التباسا؛ جفت حلوقهم وعروقهم.. تساقطوا من العطش تذكروا السيارة وعرفوا سر تعطلها.

مستخدمة

فتحة في الجدار تتطلب ذاكرة بيضاء وسطها رغيف خبز خال من البقع السوداء، ذاكرة كهذه يسهل تحويرها.. حرفية الجالسة قبالة الفرن -الماثلة في الدوائر المصفوفة- القطف الناضج.

ناولته خبزة أدارت العسل عليها «الأشجار الشاقة طرقاتكم أجساد أرواح بها، أحرقوا الشجر أجسادنا دخان خانق.. جمرات لا يطفئها المطر.. تحرق الواطي والباني والغارز علما.. الأوراق الساقطة فوق أرصفتكم تتفتت ذرات تعلق في أنوفكم رائحة تشمونها لا تغيب ذكراكم، حتى الطيور المكشوشة من أغصانها لا ترفع بياضا بل رافة في لبد.. عظامنا الناتئة في المدافن أشواك تستسقي سائلا فوق الأحذية» لفظ الخبزة، تمضمض بريقه ثم بصق على شتلة صغيرة تستقي قدما.

الدائرة تكتمل

جميعهم هناك يناشدونك البقاء, متعلقا بالريح تعبرهم هازئا بتسطيحات رؤوسهم اللافة حيث أنت , نوافذهم أمامك, أفنية منازلهم مكشوفة . تتجاوز شوارعهم الأفران المحروقة أقدامك فيها, الحمام العابر معك يقف عند الحدود. تتجاوز قارة كاملة. فوق المحيط في الهواء تسيح . الريح مازالت أمينة, تحية لكائنات المحيط الساكنة بكآبة حجم ثلثي اليابسة . يأكل بعضها بعضا؛ الماء صائر يوما ما قانيا تعبيرا عن الملل.

اليابسة الجنة تتراءى, الأبنية الفاضة حمل السحاب, الأنوار المعادلة ضوء النهار, الريح مازالت أمينة.. الريح مازالت أمينة, الدائرة ستكتمل والريح مازالت أمينة . الدائرة تكتمل, الريح تسكن, وتسكن شاتما أمانة الريح الصاعدة من أرض البداية.

المبادرة

غادرت سيارة البلدية في صندوقها جثة الشجرة. والدي صاحب المبادرة؛ بيتنا في الصف الأيمن من الحارة بينما جذور الشجرة تخترق أساسات بيوت الصف الأيسر تهددها بالإطاحة.

سكان البيوت المهددة غادروا بعد فترة غير طويلة من اقتلاع الشجرة. بيتنا صار يقابل الفراغ؛ كانت تملأ الشارع تظللنا تمنع الأتربة وتنقي الهواء. لا أحد من جيراننا السابقين شكر أبي على المبادرة. عشنا بفراغها وفراغ الجيران. الفترة التي عاشها السكان بعد اقتلاع الشجرة بالإمكان أن تبقي جدرانهم قائمة.

دفعة غير مجهدة من كفي تفتح أبواب البيوت الخواء: بفتحات علوية وجدر طينية تشتت الصادر من الأحذية والأنفاس. كابيلات الكهرباء الحياة فيها رهن المال. أعمدة الإضاءة المتصافة بمساحات محسوبة تجود على سطوح وأفنية البيوت أتخبط داخلها تبعا لمدى وصول الإنارة الخارجية لبعض الزوايا المكشوفة للسماء. الحمام المغادر لم يترك ذكرى حسنة؛ الصناديق المتدلية المحشوة قشا وريشا. والفضلات الملآى بها الجدران والدرج تزيد الخواء بشاعة . الحمام المغادر

لا يعبر سماء الحارة -لو أن فرخا صفق وطار من بيضة مكسورة لانتظرت دقات الساعة لأصحو- لكني أهمش بحذائي قشور البيض أنا جسد بعيون يقظة.

بيوت أخرى أقامت فيها عمالة أجنبية. أتحدث معهم بلغة مكسرة كلهجة مستحدثة للحارة يشترك فيها الآسيويون والأفارقة وأنا. الداخل للحارة يقرأ لافتة خضراء تحمل اسم قائد عربي؛ ظلت الحارة تحمل اسم عائلتي حتى بعد تعليق اللافتة الخضراء. الآن وبعد نفاذ روائح أبهرة آسيوية ساعة الظهر نسي اسم عائلتي واسم القائد العربي.

الإضاءة العامودية باهتة بياضها له شعاع أصفر لا تصل دوائره الضوئية إلى الأرض؛ أعمدة أطول منها في حارات أوسع تعكس ضوءا أبيض ناصعا لا تفاوت فيه. لا ظلام في المسافة الفاصلة بين عمودين النور يتلاصق فيها. تفاوت الشعاع طوليا وعرضيا يحرك شيئا في النفس يجلب الانقباض... كلهم هناك يطالبونني بالإسراع ومسح لطخات الدم النافرة من الإبهام بجذع الشجرة والعودة إلى لعب الكورة؛ لحاء الشجرة الخشن أبعدني، جعل ساقي تتمدد قليلا ومسح نزفات الدم بحائط حماه أبي من اختراق الشجرة؛ حائط يحفظ لطخة دم تتهدل يراوح بها قشر طلاء.

يصبغ دائرة الضوء بالسواد

ساعة يكسر المصباح

ظل يكنس إلى حلول الظلام. في الظلام يبدو كل شيء نظيفا. يكره الشمس تظهر تشوه الأشياء. تبرز تناقضاتها. في الظلام تتوحد الأشياء.

رداؤه الأبيض يوشي بمدة الاستهلاك. يرتدي الأسود. لأن ديارا لا ينكر بقعه الترابية الراسمة خرائط بعدد حارات المدينة.

الوقت.. المال.. البيت للذين قلوبهم بيضاء؛ أجبر نفسه على تضييق مساحة البياض في قلبه حد اصطباغ الدم النازف منه بالسواد. لا وقت.. لا مال.. لا بيت لديه.

في غرفته الدائرة الضوئية المتشكلة من المصباح المتدلي يحفها الظلام تشعره بالاكتئاب. يتمنى العكس كما ظله في الإضاءة ظلام يحفه النور؛ ظله ساعة لمواقيت النهار.. ظله يسيل على الأشياء في الإعتام. يفكر بالتقاط صورة لظله الوسيم: صورة بشعر ناعم. وأسنان بلا سوس. وأنف منساب.. يصبغ دائرة الضوء بالسواد ساعة يكسر المصباح . مستطيل من الضوء تبثه النافذة علم آوان مسك المكنسة.

كل مئة عام قنديل بحر

ممنوع لهو الأطفال فوق رمال الشاطئ، نصب لوحات التحذير أفقد الأمواج الجرأة على مداعبة شواطئ المدينة. منظر تقافز الأسماك كجندي حرب بعد الانتصار يدخل الشك بأنها هي الأخرى قرأت لافتات وجوب هجر الصيادين بشباكهم ساحل البحر، لم أشاهد من قبل مدنا مهجورة لكني في هذه اللحظة باستطاعتي رسم مخطط لها؛ لا يمكن أن تكون أكثر من قوارب صيد، وسفن صغيرة، ومراكب شراعية ترسو معطلة في الميناء.

التنافس القائم بين جميلات المدينة تضاءل بعد أن اتخذ أشجع شبانها قرارا بمصاهرة أهل الماء والزواج من حورية البحر ولو كانت بعين واحدة كما يروي البحارة؛ ليتحصن بذلك النسب من فتك قنديل البحر. هنا يقف الصبية في ظلام الليالي يبارزون أخيلتهم المنعكسة على جدران البيوت. يخيل لهم أن ظل كل واحد منهم ذلك المسمى (قنديل البحر). (بيولف) لم يكن حاضرا ليرى الأجساد الحمراء الملتهبة. ويسمع زفرات وأنات أصحاب الأجسام المشعة لظى وحرارة.

أتســاءل لماذا يعـود النـاس مـن شـواطـئ البـحـر وكـأنهـم اغـتـسـلـوا بماء النــار؟ ! مـاهـي القـوة التـي يتـمـتــع بهـا ذلك الملقب بقـنـديل البـحـر؟ ! مـا هيئته أيشـــبه الـديناصـور, أله جسـم ضخم كجسـم الحوت أو سـمك القرش؟! هــل لـه أنياب ومخالب مثـل أسـد الغـابة؟

دائمــا ينهـال عــلـي الزجـر مــن كـل حـدب, ويتقــاذف عــلـي النهـر مـن كـل صـوب, وأومـر بأن أنفـث عــن يسـاري ثلاثـا كـلـمـا حـاولـت الـسـؤال عــن وصف الخارق (قنـديل البـحـر) أي بشــاعـة يتحـلى بهـا هـذا الـكـائن الـذي أوجـد فـرقـة وقطيعـة بين اليابسـة والماء, وطرح العـديد مـن النـاس عــلى فراش الحمى.

لـم أكـن أعـرف أن شـــحـمة بيضاء بدون حـواس, بـــدون أعــضـاء, بدون أيد, بدون أرجـل, بدون أنياب, بدون مخالب, بدون أي مـلامـح استطاعـت تكـفـين نـصـف ســكـان المدينة والنـصــف الآخـر يتـفـنن في صـنع اللـحـود ينتظر الدور.

صاحب السيادة

تزعق فتبتل الجباه الجافة، وتتفتح مناسم الأنوف المسدودة وتسيح صمغيات الأذن. بيد مقبوضة وعالم يسكن بين حاجبيك تضرب الطاولة؛ يخونك الموقف هاهو ماثل صنوك في السيادة. تدخل غسقه مرسلا تأففاتك -جبر العادة- حيث الهواء يكورها ضخمة تصعد إلى الأعلى حاملة نواجذ وأياديا مصفقة.

تنادي يتسع محيط فقاعتك، تنادي ويأتيك الجواب: غرقت روحك لما زادت نسبة الماء في طينتك... غرغرة بعيدة يفقد الناس بعدها فما كان ماء وهواء وقطنا للآذان المعفرة.

انفلات الماضي

ممرات مظلمة أعتقد أني أقمت فيها منذ زمن بعيد وجوه تتلقاني لا أستبين لها ملامح، شيء ما يفيق في صدري يحاول الانفلات.. يجاهد .. ينجح في كسر ضلوعي؛ حينها يصخب المكان بنغم أوتار ضلوعي.

ثنائي

يـا من زرعـت فـي وتـنـصلت مـنـي ذات ليلة وأخـذت بجريرتها وقيل: اهبطا منها؛ كأني وأنت والأرض -تربط ذراعيها قائلة اصعدا لا تعفرا وجهي- في أبدية للشقاء.

أنا السيد المحكوم بأن لا عيش فردسيا أنعم فيه خارج حدود القارات. أنـا القاتل لودك أخي -أنا من ضحك الغـراب عـلى خيبته- أنا الملوم والمحاصـر بالسـؤال. أنا الباذر الأرض رؤوسـا واخضـرارا. وأنت الخطيئة الجارية في العروق.

وحدة مسنين

وليـــدك يحبو نحـــوك متخشـــن الركبتيـــن، ضجيـــج أخيه الأكبر يملأ ضيق روحك والمكان، أنثاك الوحيدة مســتعــصية تطيل تســريح شعـرها، يمضي الوقـت تـلفت انتباهك؛ تـقف بظفيرة معـقودة: أنا كما تريدين، وأخرى مسترسلة: أنا كما أريد.

تتهاوى مشــاهد الحياة . تـفاصيل المكان.. هي من الأموات لولا أنك تبث أنفاسك في برود المكان.

المساء

أيا أحذية اللصوص هل أفزعك نباح الكلاب. من يمحو رسمك أمام البنوك.. أيا خطى الحفاة من يستر فضحك في الطريق.

مصارعة في الأفق تنتهي بنفي الشمس وانسلال روح مهزومة تتبع رعف الشمس. روح معلقة تتأرجح بأطراف ضوء راحل .

أستعيض روحا بلون المساء تناسق تضخم جسدي بعد انكماش دام طوال النهار. روح تبرئ عمى الذئاب. تنفخ نارا أرضية في أرواح المترمدين. تستعجل ذر التراب على رسم أحذية أمام البنوك. رسم قدم يفضحها الطريق.

مساء مطرود من المدن مقذوف في البراري يرتق روحي باللون والوحشة.. روحي التي تجاهد من يحاول قذفه خلف الشعاع.

البائعات

حناجرنا متصلة -أبدا - بأنابيب الماء، عراة نتغطى بالملح، غداؤنا نلتقطه طيورا جاهزة من السماء.

رؤوس تحت شمس ليس لها دواء تختزن الشعاع حتى إذ ما جاء الليل شعّ الكون بنور الأيادي.

العريس

ضجيج.. لا تصرخ دفوف دست في أذنيك وعالم يطرق صدرك يسد فيك منافذ النعاس، أياد لم تغسل تضغط راحتك تفوح منها إذ تنزعها رائحة بقايا طعام.

مغرق بالأبخرة تضيع في عينيك الطريق، إلى غرفة مطلية متعثرا تخطو متأبطا تدخل، تنادي من ينتظر.. شجرة لا تنتهي تتمدد إذ تصعدها لا تبْتغي بيضة الذهب لكن مثبتا ورقة موقعة باسم ابن هذا المتعب.

الصياد

كل يغادر ويدخل خزينة البحر صوت في المدى ينادي ، يلتبسك النداء: يا قانعا، بصيدك الفقير اخرج من القوقعة. فك من المحار، فك حبس القماش. يخنقك الشبك، تقرفك رائحة السمك. تستنشق رائحة بعيدة خليطا من الزهر، ينقلص العالم، ترى خارطته في كفك ، تسافر فيها، تصطاد أحلامك بصنارة من ذهب.

تتطاير غشاوة الأحلام تصرخ ويتسع في المدى صداك مرددا: داخل خزينة البحر لا نجاة.

التصغير والتكبير

تشققت قدماي من خشونة الأرض، ضمر بطني من الجوع، زبدت عيناي من غبار الريح، تراخى عظمي من التعب وهو يسوقني مع قطيع خرافه إلى تلك المنطقة المحاطة بالأحراش المحفوفة بالمستنقعات الساكنة فيها الزواحف والحشرات حتى فضاء سمائها لا يحلق فيه إلا الأغربة وكأن الشمس تأنف من الإطلال عليها.. يسوقني إلى دار خربة لا أثاث فيها سوى مصباح يتدلى من سقفها يضيء ليلا خفت ضوءه من كثرة الأتربة المتراكمة عليه.. لغتي صارت لغة أعاجم . تعودت أذناي أن تطربا لدبيب الهوائم وطنين الحشرات.

كنت لا أذكر سوى فائدة واحدة فقط للشمس وهي أنها تعكس ظلا له على الأرض لأقف عليه، لم أجد فجوة أو ثغرة لتكون البداية لتغير مجرى حياتي المتدنية وألطف بها الأجواء المتبلدة حولي، كل المنافذ تفضي للديجور المفضي للديجور فقط كنت أتلذذ برسم صورة له على طريقتي الخاصة: أطيل أذنيه، أقصر رجليه، تارة أجعل يديه معكوفتين وذراعيه ملفوفتين، مرة أجعل لرأسه

شـعـرا منكوشـا، وأخرى أضع عـينيه تحت أنفه وفمه في جبهته وأبدأ بإطلاق الضحكات السـاخرة عـلى تلك الصورة المشـوهة، لكن سـرعان ما تتضاءل تلك الضحكة الصاخبة عـلى شفتي وتعـتريني كآبة وحزن سـاعة أعي أن تلك المقدرة على تشكيل الملامح وللأسف في الصورة فقط.

في ضيافة جارة

في الأيام الباردة إذ يتثلج الشاي سريعا في الكوب أستخدم طريقة الطول في العرض؛ ثمان في أربع، وفي الأيام الحارة حيث يأخذ وقتا ليبرد -متفادية لسعا يفقدني مدة ساعات طويلة حاسة التذوق- كل واحدة على حدة؛ فأبدأ العد عموديا حينا وأفقيا حينا. النقوش فيها عند التدقيق من الأسفل إلى الأعلى كخريطة دولة عربية، ومن الأعلى إلى الأسفل كخريطة دولة شرق أوسطية. تتكرر الخريطة ثلاث مرات كوجه فاقد أنفه.

لعبة البلاط البادئة (عاشرة صباحا) في الشرفة أثناء تناول الشاي مع فطائر الجبن مللتها؛ في السابق لا أزيد على أكل فطيرتين؛ لأن الإطالة تعني الإصابة بغثيان ودوران من تقاطع البلاط وتداخلها. بعد ذلك صرت أضع في الطبق خمس فطائر لكل شتلة فطيرة؛ في كل شتلة بذرة، دفن في وقت واحد، وسمدن بالكمية نفسها، وسقين بمقدار ماء واحد، البذرة في كل شتلة من الفصيلة نفسها؛ أكد ذلك بائع الشتلات، وزاد اقتراحا اشتراء أحواض

متباينة الألوان تفاديا لنسيان شتلة دونما سقي، اختار لي حوضا أحمر، وأصفر، وأسود، وأبيض.

غرسة الحوض الأحمر سابق طولها طول أخواتها الغرسات في الأحواض الأخر، أصغر منها غرسة الحوض الأبيض؛ لكنها لا تشابهها في تفرع الأغصان وتمددها، أغصان الغرسة ذات الحوض الأصفر القصيرة نسبيا تأتي بعض أغصانها مليئة بالأوراق وبعضها عارية منها تماما، غرسة الحوض الأسود صغيرة تشق التراب كما الجنين الشاق رأسه غلاف الهواء. اللعبة الجديدة تجعلني أكثر انشراحا، وتجعل ملابسي أكثر ضيقا.

دوحة ملتوية الأغصان ضخمتها غدت غرسة الحوض الأحمر؛ ملأت أوراقها المتساقطة أرضية الشرفة، في وقت ما اعتقدت الأغصان العارية في غرسة الحوض الأصفر نمت لها أوراق؛ لكن اتضح كرم غرسة الحوض الأحمر التي نشرت أوراقها في كل زاوية -وبشكل مجزل على أغصان غرسة الحوض الأصفر العاريات-.

جهزت الشرفة بالاستعدادات اللازمة : مكنسة ذات عصا طويلة لجمع الأوراق في جهة من الجهات، ومكنسة بعود صغير لتنظيف زوايا الشرفة من الحبيبات المتهاطلة كرشق المطر، وجاروف لجرف التراكمات الورقية واللقاحية، وحاوية بعجلات تسهيلا في نقلها من مكان لآخر داخل الشرفة. تلكم الاستعدادات أجدت نفعا وقت الأمر متعلق بغرسة الحوض الأحمر، وغدت لا تجدي وقت تحول الهجوم من أغصان غرسة الحوض الأصفر -الملآى بكرمات غرسة

الحوض الأحمر- والتي قضت زمنا ما متفسخة عنها تماما. كسرت تفرعات غرسة الحوض الأحمر الحاجز الحديدي المطل على فناء البيت, وسدت المنفذ الموصل إلى الشرفة جهة وسط البيت. كالغابة صارت الشرفة.

نصف ساعة ولم تحضر. سياسة التنفير حفظتها: الإضاءة الشفيفة هبة الستائر المشككة خواصرها بالأشرطة. التهوية هبة النافذة الملوية دون رضا ردفتها؛ في حين يجمل التكييف وجه الحائط, والثريا سقف الغرفة.

هاهي تتقدم, تدخل حاملة طبق الفطائر. عليّ بضبط النفس وألا تمتد يدي على أكثر من فطيرة واحدة كي لا تخترق نظراتها يدي وتحرقها كما البارحة.

الهجرة

في شـوارع تتزين بالسرقات حمرة زرعت في عيني وزرعت قدمي في الكابح، شجرة أرغمت اختراق الرصيف وطائر حولها يصيح، عرفتها وعرفته، اقتلعوا موطنه، قطعوا به المسافات؛ لحق به ينشر وفاءه ويلفت انتباه من يعبر الطريق.

سافرت روحي توسطت الوطن تسقي زرعه وتنثر لطيره الحبوب.. بكاء على الشجر وغفلة الوطن وسفري صوب السماء.

اخضرار يحصد الحمرة أن اعبر الطريق؛ فعبرت الطريق مسرعا ومنهيا صلاتي على وطني وعلى طائر فوق وطنه يصيح.

دار مهجورة

لو أن صرير الباب يعلو، لو أن قدما خشنة تحتك بغبار الأرض تدفئ صقيع المكان،-لو أن الشمس تحنو قليلا على ربع من أرباع النافذة المعتمة، لو أن حمامة ضلت الطريق تحط عليها، لو أن صاحبي ذلك الموبوء بالسل يدخل ملفوفا بالكفن يصعد الدرج، يطلق بياض لفائفه للسماء يملأ السطح حجرا عدد الأيام التي غاب فيها محمولا على نعش ناثرا ذرات سعاله تنمو في شقوقي؛ لو أن ذلك كله يحدث لكنت من الأحياء.

اختزان الوجع

في السطح قفص وطفلة تبني بيتا من الورق، عرائسها أخشاب لا تنحني ملفوفة بمناديل تواري استقامات الجسد، النسر المحلق جناحاه معطف طوق الشمس، والجرذ في غفلة من خطف النسر الشمس يترك ريشا منشورا وقفصا يتدحرج في عيني طفلة احتضنت الوجع.

امرأة في عينيها طير فقد الريش بعد الاغتيال وشمس سرقت وقت الانبهار، قوارض الأرض لا تترك ساحات لك فيها صدى، أجنحة لا تصفق تملأ الفضاء تحجز الهاطل من السماء على نثرات اخضرار صفرها الظل وتيبست من العطش. جدران عالية من الأسمنت تنهار لا تصمد مثل تلك التي من الورق، جسد لا ينحني مثل ذلك الذي من الخشب.

مزارع

منذ عشرات السنين تقطر عرقك في حلق الأرض، توشم خدها برسم قدميك، تشم فيها بقايا مدن وأمجاد ملوك، تقلب تربتها، تبعثر صفحات التاريخ.. لا تبوح لك.. تستأمنها؛ تسطر سيرا وفصولا لتاريخ جديد، تغيب جسدَ عزيزٍ في صدرها، تدفن سرك.. تفضحك، وتطرح سرك سامقا أخضر للعيان.

فرقعة ناعسة

فـي منتصف الليل يسمع صرير باب يفتح، تخرج ويسمع قرع حذاء عال.

قبيـل الفجر تعـود ممسـكة بيديها الحذاء مشيعـة بفرقعـة لبان ناعسـة، تخطو فوق الدرج، تتبعـها زوجة البواب، تصعد الدرج، تكنس زوجة البواب خلفها درجة.. درجة. تسـألها: لماذا تكنسيـن خلفي الدرج؟

تجيب: لأن خطواتك -سيدتي- تدنس الدرج.

حارس الأجساد

فتح درفتي عالمه الصدئتين عقب صلاة العشاء، ووقف منتظرا ضيفا جديدا -كعادة ضيوفه إذ يأتون عقب أوقات الصلاة-.

تدخل أقدام تسحب خلفها الأتربة وضجيج يختلط فيه الحزن الصادق بالمضروب، تبدأ أيدٍ بالحفر، وشيء ملفوف بالبياض يهبط بسلام في القاع، يوارى عميقا، يخرج الجمع مخلفا كومة تراب مبللة بالماء، سحب درفتي عالمه وعيناه مغروستان في أقفيتهم متأكدا أنه سيستقبلهم ضيوفا في عالمه ذات يوم.

ألصق درفتي عالمه ببعضهما والتصقت روحه بعالم صامت، جلس على حجر:

- مرحبا بك ضيفا جديدا مقيما ساكنا كومة تراب، مرحبا بالزائر المرفوع على الأكف والأكتاف قبل قليل، المرمي المطروح -الآن- في التراب، أنا لا أدري أين كنت قبل ساعات -أقصد قبل مجيئك هنا - لكن لفت نظري كثرة من حملوك -أعني من رموك هنا في عالمي- صرنا وحيدين، وسأبدأ بنفسي يا ضيفي: أنا من لا يشرب سقاه، ولا يؤكل طعامه؛ فشرابي يجري عبر أنابيب تخترق أرض الأموات،

وطعامـي مقرف مقزز تفوح منه رائحة الأموات التي لا تنفك عن يدي ولا تخطئها الضباع. بياض لحيتي وشعري اشتعالات الأيام وصخب الأصوات المدفونة -هذا بالحرف ما يقال عني خلف الأسوار - لن أقول أكثر من ذلك. وسأبدأ بتعريفك بنزلاء عالمك الجديد: هذه الكومة الجانبية لكومتك لسيدة ضاقت بها البيوت الأسمنتية فوجدت فسحة واسعة لا تضيق. وهذه الكومة الجافة -مع أني أبللها دون انقطاع فأنها سرعان ما تجف ويتبخر منها الماء- هي لرجل بخيل ينعم بثروته الآن أولاده. أما هذه البقعة الخضراء لطفل أكل أخواه تمر نخلته الوحيدة، أظن أنه دفن وهو ممسك بنواة إحدى التمرات التي نهشها أخذهما قبل أن تصل إلى فم الصغير، والنواة المدفونة أخرجت سدرة ولم تخرج نخلة. وذلك القبر الملاصق للسور شابة غاية في الجمال احتفظ بجثتها صاحبها داخل غرفة؛ فانتفخت الجثة وتعفنت وتعطبت وسرى عفنها خارج الغرفة وتلوث بيت الصاحب وانتشر في المدينة وباء ناشئا عن التلوث؛ الموت شجاع؛ ميت واحد يكفن مدينة بأكملها، ويدفنها في حفرة واحدة. انظر إلى هذه العقرب المتخبطة في دبيبها، وتلك الزواحف المخترقة التراب، والخنافس المتكورة على بعضها؛ لقد تكونت من الصديد المتسرب من ذاك القبر في الزاوية الذي لا تنفك عفنته نتيجة السوائل اللزجة النتنة المحيطة به. دائما ما توقظني ديدانه بنخرها الحجارة.

أما صاحب القبر -وهو ما يهمني أن أعرفك به- رجل ورث شمسا فحبسها في خزانة وعاش أيام حياته في عتمة دامسة وظلمة أبدية حتى حل ضيفا عندنا ونزل منزله الذي تشاهد. هذا هو يا ضيفي الجديد عالمي الذي لا أستطيع العيش خارج أسواره. هؤلاء المقيمون معي دون أن يتطاول أحدنا على الآخر؛ أنا وأنت وهؤلاء سواء: أنا تراب مبلل فغدا طينا وأنت وهؤلاء طين جفّ ماؤه فغدا ترابا. لا تغرك نظراتي فهي لا تتعدى هذه الأسوار نظرات يحدها الموت. أنا هنا أحرس الموت أحرس العدم. أحرس الأجساد من نبش الكلاب مع إيماني بفنائها سواء أكلتها الكلاب أم حللتها التربة رفات. أنا هنا أقدر الأجساد؛ كيف هان على أبنائك وإخوتك جسدك فحملوه على خشبة وجاءوا به في هذا الليل وهذه العتمة ليرموه في باطن الأرض وأهالوا عليه التراب. أنا لم أر روحا في حياتي لا أرى إلا أجسادا؛ لذا أهاب من يسكن خارج هذه الأسوار إنهم أجساد تسكنها الأرواح. الأرواح التي تحيرني. الروح لا تلتقي مع الجسد إذا دخل أحد الرحمين: أنت جسد بلا روح في رحم أمك الصغرى. والآن أنت ترقد جسدا بلا روح في رحم أمك الكبرى. إنها تفر وتنفلت إذ ما أحست بطمأنينة الجسد وسكونه. إنها الشقية. سرقنا الكلام وما درينا أن رأس الشمس خرج من رحم السماء وحان وقت فتح الدرفتين ليستقبل رحم الأرض جسدا جديدا.

القسم الثالث

المسلك

قلما تنظر وجهًا لوجه إلى والديها. تحدثهما -لو جاءت مبادرة حديث منهما- صادة مصعرة وجهها، أو تجول ببصرها في كل الاتجاهات وتتحاشى التطلع إلى جهتهما. ولو انتبه والداها لوجدا أن آذانهما لم تُطرق بكلمة «أمي وأبي» فهي منذ وعت نبذتهما من حواسها. فقط تناديهما في وحشة غرفتها لتعلنهما بعذابها. وتراقبهما خفية -متى لهت أبصارهما عنها- في كل تحركاتهما وتعاتبهما بلا صوت وتلومهما على اختيار هذه الوظيفة. على قسوتهما في تجاهل مشاعرها والرعبِ الموزعِ في أجناب البيت المتدفقِ مع المياه الجارية فوق الأموات. تنظر إليهما على أنهما سبب تعاستها، وأنهما منحاها أقبح لقب (ابنة مُغسّلي الموتى). ورسما في مخيلتها أبشع الصور صور الأموات وجثثهم الحائلة. فغدت منطوية تتجنب زميلاتها في المدرسة. لا تحدثهن، ولا تلعب معهن. تجلس في زوايا الفصول، وزوايا الأسوار، تهرب من كل مخاطبة لها تخوفًا أنه قد وصل إلى علمها أنها (ابنة غسَّالي الأموات). آلم يوم في حياتها

والذي جعلها تهاب كل متحدثة وتخشى كل مرافقة يوم صدمتها تلميذة في الفسحة تجلس قريبًا منها فابتعدت متلفظة «إني أتقزز من الأكل بجانبها، دائمًا أرى الجثث تدخل منزلهم». المدرسة كابوس يومي تنتظر الجرس يرشقها برنينه لتفوق من تعاقب ساعاته التي تُفتِّتُ أعصابَها وتُصدِّع تماسكَها، تستبشر بتهالكها تدريجيًا دون أن تتقاسم الحديث عن عمل والديها، وتدخل في صراع مع ساعات أخرى؛ البَدْأَة ساعة ولوج البيت خاصة حين ترى سيارة تقف عند الباب والجثث تُنزل منها. رائحة أوراق السدر النشير في البيت تبث الكآبة في نفسها، وعندما تفوح رائحة المسك ينقبض صدرها فتمتنع عن الأكل والشرب، ارتبطت تلك الروائح ببَدْءِ مراسم مروعة. سمعت بمغاسل الأموات، وودت لو أن أمها وأباها يلتحقان بتلك المغاسل، لكنهما يحبان ممارسة الطقوس التقليدية في عملهما، الطقوس التي تذبحها. تذهب أمها أحيانًا إلى البيوت لتغسيل موتاهم، وكانت بهذا تغسل مخها وتوهم نفسها بأن أمها تذهب إلى مكان بعيد فإذا جاءت فلا تحدثها ولا تسألها أين كانت، وما فعلت؟ وكذلك يفعل أبوها. عندما تشاهد إخوتها الأصغر منها يأكلون تقول لهم «في الوقت الذي تصلون فيه الصف السادس الابتدائي ستُبغضون الأكل والشرب، وتقرفون من هذه الحلوى التي تتصارعون من أجلها».
لا تضحك ولا تبتسم ولا تلعب كالأطفال، متكورة في إحدى غرف البيت، وتحقد على الأطفال الذين تشاهدهم في التلفاز وتلفاهم لا يشبهونها لأنهم لا يحترقون بمناظر خراطيم المياه وليف الدلك

والصابون والأقمشة البيضاء وقوارير العطور المختلفة؛ الأدوات التي قهرت طفولتها بالخوف.

زهدت في مراهقتها عن متطلبات المراهقات من مكياج وموضات الأزياء والأحذية والحقائب، وإذا عرضت عليها أمها لتذهب وتشتري ما يحلو لها، ترفض قائلة «لا أريد» ولا تزيد هذه اللفظة، لا أريد الحياة في عيشة قاتمة تخنق البهجة، لا أريد من يعرض علي التجمل الخارجي، ويمنحني الخراب الداخلي، لا أريد من يُقدِّم إلي الزينة الجسدية، ويُشوِّه روحي بالحزن. اقتناء الملابس وأدوات الزينة لا يجلو قنوطها من منظر ازرقاق الأجسام وابيضاض الشفاه وزوغان الأبصار وتيبس الأعضاء، من رائحة أمّها وأبيها، ترفضهما وترفض وجود جسدها معهما.

..

الجامعة عالم آخر ليس مثل المدرسة التي تتبع الحي وكل من فيها يهمس بوظيفة والديها، دخلتها كدخول بلد أجنبي، في سفر عن حارتها، صارت متكتمة لم يسمع أحد عن عائلتها، الجميع يعرفها باسمها (جوهرة)، تدفن عائلتها مع مرورها ببوابتها. مع أنها كانت تزهد في الأشياء الجديدة لأنها لا تجد لها قيمة في بيئة عائلية يعبر الخلقُ خِلالها من الهواء إلى التراب؛ بَدَأت في الجامعة تسعد ولو بشكلٍ قليل بكل ما يستهوي الشابات، لا بأس بالصداقات التي تُجهل فيها العائلات، لا مانع من الصديقات اللائي لا يعرفن شيئًا عن الحياة الخاصة، ولا يسألن عن الخصوصيات؛ تآلفت مع طالبة، وصارت مرافقة

لهـا وصديقة مقربة. تكثر صديقتها من ترداد اسـم أخيها عبر نقل أخباره. حتى أنها في بعض الأحيان عندما تتصل بها تقول «اسمعي أخي! ما يقول! هـاكِ انصحيه ليكفَّ عن مضايقتي بمقالبه! دافعي عـن صديقتـك الغالية من تظـارف أخيهـا المزعـج». كان إعجابها بالشاب كإعجاب فتاة بمذيع أو مطرب أو لاعب كرة. لا تسمح لمخيلتها بالحفر وإخراج الأحلام. سايرتها مخيلتُها فجعلت تربتها صلبة. وهذا الدفن للمشاعر والأحاسيس صار تبلدًا تلقائيًّا لا يسبب لها مضايقة فهي متكيفة معه. بل ويجعلها أكثر انبسـاطًا وتقبُّلاً للحياة. بعد كل مكالمة تسمع فيها أخبارَ أخي صديقتها أو صوته تجلس أمام المرآة وتفلي خصلات شـعرها وأطرافه. لا مُحفِّزَ لتسريحه. كلما أمسكت بالمشـط تظهر صورة أمها وهي تُرجِّل شعورَ الجثث وتضفرها جدائلَ مسترخية باسترخاء عالمهن. مقتت تجميله.

بينما تجلسـان ذات يوم في حديقة الجامعة تشرب صديقتها الشاي مـع وجبتها. في حين (جوهرة) بلا شـهية. لم تمس وجبتها. فوجئت بصديقتها تضع طبق البطاطس المقلي أمامها وتدعوها لتشـاركها في الأكل. كانت هذه الدعوة صدمة. تخدَّرت للحظات تصن في أذنيها «أقرف من الأكل بجوار ابنة مُغسِّـلي الموتى» لم تمد يدها. وشـكرت صديقتهـا. التي ظلت تلح عليها حتـى باغتتها قائلة «(جوهرة) ما رأيـك لو أخطبك إلى أخـي؟» أطالت (جوهرة) السـكوت. ولم يكن مـن فجاءة ألمت بها أو فرحةٍ تكتمها أو حـزن تبطنه. بل قناعة منها باستحالة الأمر لا تطلب شيئًا في هذه الدنيا مادام والداها يتنفسان

خليط الحياة بالموت، وحالما ينفد نفس الحياة عندهما ستفكر بالحياة، حتى دخول الجامعة لم يكن من الأمور المحببة لها أو الأُمنية السعيدة، لا فرق عندها أن تجلس في البيت أو تلتحق بالجامعة، بل إن أيام المدرسة كانت أيامَ شقاء ومن المراحل المقيتة. وردت بكل اقتناع ودون تردد «أخوكِ ظريف وحبيب، لكن لا أرغب في الزواج».

-»لِمَ يا جوهرة؟ فكري في الموضوع! ألا تودين أن نكون الصديقتين الدائمتين في الجامعة وخارجها؟» (جوهرة) لا تحب صديقتها ولا تكرهها، شعورها تجاهها عادي سواءً عندها انفصلت عنها أم لازمتها، ومبادرة الصداقة جاءت من الصديقة، تقبلتها فليس في الأمر ما يزعج مادامت لا تعرف عائلتها. قالت الصديقة: «على حين غرة ودون مقدمات سترينني في منزلكم نطلب يدك» وحست (جوهرة) أن كتلَ تراب تضغطها داخل قبر.

دخلت غرفتها، ووجدت على تسريحتها أغراضًا جديدة؛ علبة مكياج وأدوات زينة، وإكسسوارات، سألت أمها عن هذه الأغراض، وأجابتها بأنها اشترتها عندما خرجت من مستشفى تشهد احتضار إحدى المريضات، قالت جوهرة «أرجوك لا تحضري لي شيئًا، لا أريد شيئًا، فقط أريد أن أموت... أعيش إلى يوم مماتي وتغسلينني وتكفينني ويأخذني والدي ويسقطني في حفرة ويهيل التراب علي» ثم رمت بالأغراض خارج الغرفة وأغلقت الباب. وصاحت بصرخة مكتومة بالمخدة «أنا أكرهك يا أمي.. أنا أكرهك يا أبي.. لماذا أنتما والداي.. لا أحبكما.. أمقتكما يا ليتكما تموتان وأرتاح منكما.. آه لو تموتان!

لو تصدمكما سيارة في الطريق! آه لو ينهدم عليكما المسكن.. تحترقان.. صديقاتي يتقززن مني وأنا أقرف منكما.

أفاقت من نوبة البكاء التي أخذتها في غفوة طويلة منذ مجيئها من الجامعة إلى تلك الساعة من الليل. في عتمة الغرفة بدأت تفكر في طريقة للخلاص من بيت الأشباح ومن رائحة السدر وشم المسك، من منظر أبيها وهو يتردد من غرفة تغسيل الأموات الملحقة بحوش البيت إلى داخل المسكن، من منظر أمها التي هيّأت هي أيضًا حجرة في الوحش لغسل الموتى من الإناث، غرفتان في المسكن الذي تنام فيه وتأكل وتشرب مخصصتان للأموات، غرفة للموتى الرجال، وأخرى للموتى الإناث -حقدها على أمها يفوق حقدها على أبيها مع أنهما لهما نفس الوظيفة ذلك أن أمها ترغمها دون قصد على معايشة تلك الطقوس المفزعة، تنادي عليها أحيانًا لتطلب منها بعض الأشياء في أثناء عملها، فتطلب إحضار الصابونة وأحيانًا الليفة، فترضخ بكل ألم- قررت أولاً ترك الجامعة، فلن تذهب من هذا اليوم إليها، وبيّتت النية في ضحاه؛ فبينما إخوتها في المدرسة، ووالدها خارج المنزل، وأمها تنتظر وصول جثمان، سبقت أمّها إلى غرفة التغسيل ودعكت أرضيتها بمسحوق التنظيف، فلما دخلت الأم لتجهيز الغرفة، وفي أثناء تحركها تَعقّلتُها وبللت أرض الحجرة بعد أن عرفت المسافة بين أمها وصنبور الماء الذي يمتد فيه الخرطوم، فتزحلقت الأم وتحاشت عند سقوطها الحنفية، فاصطدمت بالجدار فدفعتها البنت إلى الحنفية فصكت رأسَها ورشق الدم، وانتظرت ريثما تسيل الدماء، وتفقد الكثير منها.

١٢

عادت إلى غرفتها وحين سمعت طرق الباب وبعد فترة طويلة من الطرق خرجت لتفتح فإذا بعائلة الميتة ومعها الجثمان، قالت «لحظة سأنادي أمي أنها تغسل أرضية الغرفة وتنظفها استعدادًا لكم، تفضلوا!» وحالما وقفت بباب الغرفة مع العائلة صرخت وهُرِعت إلى أمها تنادي «أمي أمي ساعدوني أرجوكم، أمي مغمى عليها، أمي تنزف» وأسرعت تطلب أباها بالهاتف.

جاءت الإسعاف وأعلن الطبيب وفاة الأم بسبب سقوطها على آلة صلبة تسببت في إصابتها بجرح بالغ نزفت على إثره نزفًا مستمرًا حتى فارقت الحياة، جاءت الشرطة، وقال الأب «هي معتادة على تنظيف غرفة التغسيل وغسلها قبل استقبال الزبائن».

يد أصغر إخوتها تهز كتفها في اليوم الثالث من وفاة أمها، ويقول «أبي يطلبك في الحوش»، استقبلها أبوها بقوله «بارك الله فيك يا ابنتي، اتبعيني» ودخل معها غرفة غسيل موتى الإناث، فرأت أمها مسطحة، فعرفت غرض والدها، لكن صمتت لينطق بطلبه، ولم يطل حتى قال «بارك الله فيك، اغسلي أمك» وشرح لها طريقة الغسل، كانت تعرف أن ملف الطب الشرعي موارب ولم يُحكم إغلاقه، وحتى يُقفل ويَضيع مفتاحه لا بد أن تخضع لمطلبه، خرج أبوها، فأقامت ثلاثة جدران قبل اقترابها من الجسد المتجمد بفعل بُقْيَاه في ثلاجة المشرحة إذ تسلّمه الأب قبل قليل؛ الجدار الأول أقامته على عقلها ليصطدم به الزمن ويتوقف فلا تتموج الأحداث العالقة

بـه بين القبـل والآن والبعـد. والجدار الثاني علـى عينيها ليغطي كُنْهَ الجرم المتمدد أمامها لبشـرٍ يكون أو قطعة أثـاث. والجدار الثالث على روحها ليحجز مشـاعرَها سـواء ما يؤدي منها إلى الإحساس بالذنب. وتأنيب الضمير واقتراف الخطيئة. أو التي تؤدي إلى الانشراح بالانتقام. والعزاء بالتخلص من مسبب تعاستها. والتفريج بالخلاص. غسلتها ليس بالكيفية التي أرشـدها إليها أبوها؛ مـررت خرطوم الماء ليغمر الجسـد ذهابًـا وإيابًـا. في حـين لم ينثـر فيها الجسـدُ الخائـر بخرمه البنفسـجي في مؤخرة الجمجمة نزيرَ المشـاعر؛ هزها مرأى الصنبور لما التفت لتحبس الماء. وشـرخ الحيطان الثلاثة لثوانٍ. فألفت نفسـها في سـاعة ضحى في غرفة تغسـيل الأموات تمارس عملية الغسـل على جسـد أمها وأن منفـذًا في النخاع هي التـي أحدثته لتمر منه روح أمها ويغيب جسـمها إلى الأبد عن عينيها وعن البيت. وحسـت بالقهر الخالي من الندم. فتداركت نفسها وزادت من سماكة الحوائط، ولفت أمها فـي الكفن وخرجت متجاهلة إعلام أبيها الذي جاء قبيل صلاة الظهر وحمل الجنازة.

بعد أسـبوع ناداها أبوها وقال «يا ابنتي، أنت تركت الجامعة. فلِمَ لا تمسـكين مكان أمك في العمل؟» تأججـت وكادت تنفجر في وجهه هاجمـةً ممزقةً له. لكن الشـرطة لم تبرح دارهم طوال هذا الأسـبوع تأخـذ الأقوال وتعاين، وكأن في الموت لغزًا. فلمْ ترفض إبعادًا لشـبهة بغـض عمـل والدتها. وخيّرها بين العمل مُغسِّـلة موتـى في المنزل، أو غسَّـالة موتـى في المغاسـل الخارجية. قالت «بل أفضّل المغاسـل

الخارجية». قال «على راحتك».

أخذها في الغد إلى المغْسَلة. وقال لقد اتفقت مع صاحب المغسَلة على كل شيء فقط اذهبي إلى فلانة لترفقك بالعمل ونشرح لك الأمور.

مرت تسعة أشهر وهي تعمل مُغسِّلة أموات. أهملت فيها إخوتها الأصغر منها. تدخل البيت دون أن تعطيهم فرصةً نشدانِها حاجتهم. وتخرج منه صامتة. حتى نظرها لا يعبهم. يكتفي إخوتها بأكل الخبز الذي يحضره والدهم مع المعلبات والأشياء الفورية التحضير التي لا تحتاج إلى طبخ. فقط تحتاج إلى تسخين أو تقليب على النار. لا تدري من ذهب منهم صباحًا إلى المدرسة ومن عاد في الظهيرة. تظل بالثلاثة الأيام والأربعة لا يستقبل جسمُها الطعام. ومتى تذكرت حق بدنها تناولت قطعة خبز مع المربى أو الجبن. ولا غضاضة في تناولتها حافة. قصت شعرها حتى لا تحتاج إلى تمشيطه. وفي العمل تلفه بالطرحة وتنساها أحيانًا ملفوفة على رأسها في البيت. بل وداخل غرفتها.

١٣

أخبرتها المشرفة ذات يوم وهي في مَغسَلة الموتى أن ثمة سيارة إسعاف قد وصلت. وعليها تولي غسل الجنازة. أُدخلت الجثة وبرفقتها خمس نساء؛ امرأة متوسطة العمر باديًا عليها القنوط والتأثر. وضعت (جوهرة) الجثمان للتجهيز. وجاءت عيناها على عيني

شـابة. كـانت صديقتها. الجثمان لامـرأة عجوز فعرفت أن المرأة المتأثرة ابنتهـا. وأنها أم صديقتها. وربما الثلاث الباقيـات يكن الخالات. كأنها وصديقتهـا لم تكونا يومًا رفيقتين حميمتين في الجامعة. وكأنها لم تعـزم عليها يومًا بطبـق البطاطس المقلي ليقتسـما الطعام معًا. وكأنهـا لم تطلبها زوجـة لأخيها. كلتاهما تتجاهـل الأخرى وتتنكر لهـا. لم يبدُ علـى الصديقة التأثر والحزن على جدتهـا. ولم يبدُ على (جوهرة) الإحراج من عملها. ومارسـيت طقوس الغسـل والتكفين بكل مرونة وثبات. وغادرت المكان إلى غرفة أخرى في المغسَلة.

في طريق عودتها إلى المسـكن استنكرت عدم سؤال صديقتها عن سـبب تركها الجامعة. وعن سبب عملها هذا. فتأكدت أنهما الآن في عالمين؛ عالم حي تعيش فيه صديقتها. وعالم الأموات تعيش فيه هي والجثث. لذلك صعبٌ اسـتقبالُ كل واحدة منهـا الأخرى وإقامةُ حوار معها.

عند مدخل البيت شـاهدت أباهـا فرددت «أكرهك يـا أبي. أمقتك يـا أبي». ودلفت داخـلاً. وقالت بصوت عالٍ وهي تلـج غرفتها «ليتني أقتل الأموات» وصلتها ضحكةُ أخيها مع تسـكيرها الباب. شـمت ألبسـتها ويديها فشـمت فيها بقايا روائح الموت؛ رائحة ورق السـدر والمسـك فانقبض قلبها وانحدرت نحو ظلمات ذات طنين صاخب. ثم قبـت من ذاك المنحدر وهي تـردد «أكرهك يا أبي أبغضك». جاء النهار ولـم تنـم ولم تبك مثل تلك الليلة التي رسـمت فيهـا مقتل أمها. نفضت الأغطية المندسـة فيهـا. وخرجت من لهيـب حجرتها حالما

اطمأنت أن إخوتها غادروا إلى مدارسهم عدا الأصغر منها الغاطس في النوم، وكانت تعلم أنه سيكون مستغرقًا في نومه لسهره إلى استطارة الفجر.

ولجت المطبخ وأخذت أكبر القدور وارتقت الأرفف السفلية ووضعت القدر الكبير فوق الأرفف العلوية، ثم صفت في جوفه صحون الصين الثقيلة الواحد تلو الآخر ثم غطته ونزلت ووضعت كرسيًّا على الأرض مباشرة باتجاه القدر، ثم خرجت إلى الحوش تنادي أباها الذي يبتكر بعض التركيبات العطرية ويقص أمتار الأكفان ويصنع النعوش، فوالدها بالإضافة إلى عمله كمُغسِّل للموتى يعمل حفار قبورٍ يُلْحِد الأمواتَ في أجداثهم. أقبل عليها من غرفة التغسيل، فقالت «عجزت عن الوصول إلى القدر في أعلى أرفف المطبخ، هل لك سحبه وإنزاله». صعد الكرسيَّ -المقام سلفًا- مرتكزًا على أصابع قدميه مد يده وسحب القدر وأماله باتجاهه، فضربت إحدى أرجل الكرسي بقوة صاعقة، اهتز أبوها واضطرب القدر بين يديه واختل توازنه وسقط، ولما كان الصنبور بعيدًا عن أمها ودفعتها إليه، كان أبوها بعيدًا عن حافة زاوية الرفوف السفلى الحادة فدفعته في أثناء تهاويه إليها، فتناءى عنها محاولاً التشبث بأبواب الرفوف العليا فسحبت رجليه بشدة ليصدم رأسُه الحافةَ ويرتطم في الأرض متراطشًّا دمُه على البلاط، فتكرر منظر نزف أمها لكن هذه المرة لا تستطيع الانتظار حتى تستنزف دمه ثم تطلب النجدة من أخيها فالمطبخ ليس من اختصاصات والدها، بل وجوده فيه يَلزم وَرُوعًا منها، بعكس

تواجد أمها في غرفة غسل الموتى حيث من اختصاصاتها تنظيف الغرفة. أبطأت على أخيها الذي هُرِع إلى المطبخ وصرخ فيها لتطلب الإسعاف. تكرر سيناريو موت أمها، وقررت كي تذهب الاشتباه في وفاة أبيها الإبقاءَ على عملها لبضعة أشهر حتى نسيان موضوع مقتل الأب، وقفل ملف التحقيق.

عادت إلى العمل بعد تركها إياه بعد حفظ التحقيقات، عادت بعد أن وجدت درج النقود فارغًا من المال، والبيت أقفر، ولم تجد ما تعيش به هي وإخوتها الأصغر منها، الأخ الأصغر مباشرة لايزال يطرق أبواب المؤسسات والشركات والوزارات، أما البقية فمازالوا على مقاعد الدراسة؛ مجبرة على الصرف ليس حبًّا فيهم وشفقة، بل تراه دورها ولابد من ممارسته، ألفت البحث عن عمل آخر في غاية الصعوبة والمشقة، وأن عملها في مَغسَلة الأموات جاهز، خبرت طريقة العمل، وحتى المواصلات منه وإليه متوفرة لا تحتاج عناء.

١٤

·أرى أنه لا حاجة أن ترفق الصفحات (١١ و١٢ و١٣ و١٤) في الملف لأنها لا تخص الحالة.

¨بالعكس يا حضرة المديرة هذه الصفحات ضرورية، بما أني أستاذة علم اجتماع أجد أن معرفة البيئة التي تعيش فيها الحالة والمحيطين بها تُسهِّل عملية الدراسة والتقويم.

§نعم، أنا مع الدكتورة رقية في إبقاء تلك الأوراق ضمن الملف،

ومادام الدكتورة ذكرت الاختصاص، فأنا كذلك بصفتي أستاذة علم نفس أجد هذه الصفحات مهمة لمعرفة نفسيات المتعايشين معها، لذلك أنا قلقة من المرض النفسي الذي أصاب أختها وأودى بها إلى الانتحار أن ينتقل إلى (سارة) وتُقدِم على الانتحار، خاصة وأني لاحظت سعادتها بموت والديها وقد استغربت ذلك الفرح، لا وبل ذلك التواطؤ الذي جعل (سارة) تَكتُم سرَّ أختها في حياتها، لذا أرى أنا من واجبنا البدء بمرحلة علاجٍ قبل التأهيل.

"مع أنك يا دكتورة سحر أيّدتني في أهمية هذه الصفحات التي تخص (جوهرة) أخت سارة، أخالفك في مسألة انتحارها، أنت نفسك ذكرت غبطة (سارة) بمقتل والديها؛ فهذه البهجة والتي أسميها أنا دليل الرضا، بالإضافة إلى ما سمعته منها فعندما تسرب الغاز ذكرت «أنها كانت تنظف السطح، وأختها (جوهرة) نائمة، والأخ الذي يكبرها ذهب إلى موعد في المعهد، والأخت والأخ الأصغر منها في المدرسة»، وجودها في السطح هربًا من رائحة الغاز الذي تنتظره يعم البيت ويقتل أختها النائمة، ونزولها منه كان مباشرة إلى الشارع تستنجد -لقد أحاطت نفسها بحماية من استنشاق الغاز- ولا أنسى أنها ذكرت بَغَاضَة عمل أختها، فعملها كما قالت «مريع»؛ كل هذه الأمور تجعلني أظن أنها وراء مقتل أختها.

§لا، أنت بهذا، ذهبت بعيدًا، حتى لم يبق إلا أن تقولي، فاضطرت إلى غسل أختها حتى لا يشك فيها أحد.

تسخرين يا سحرا فكيف لو ذهبتُ ظنوني أبعد من قتْلِها أختَها.

وخصوصًا أنك أنت من أثار موضوع السر المكتوم، وإذا كنتِ لاحظتِ حبسها لسر أختها في حياتها، فأنا استنكرت إفراجها عنه في هذا الملف وبعد انتحار أختها. واطمئني يا دكتورة، المنتحر حسب علمي لا يغسل.

التأقلم

ينهق الحمار مستعجلاً العربجي؛ فأنتفض وألامس قفا مصراع الباب أمامي، يستدير منزعجًا (لو سمحتِ!)

أهزّ رأسي علامة (مفهوم الكلام). يتمايل من الملل الواقف خلفي فيحتك كيس البرتقال بظهري، التفتّ له..

(آسف!!)

ابتسمتُ له غير منزعجة.

يتحرك الحمار بالعربجي ومصراع الباب وأنا وصاحب البرتقال، هذه تجربة أولى مع طابور العيش؛ الأهوج في رأسي ركبني اليوم.

هجم عليّ أطفال الحارة (أنا يا أبلا، أنا ياأبلا ....) خرجتُ من وسط معمعتهم بأكياس خفيفة، فتحي حمل الأكياس ... عند باب الشقة (شكرًا حبيبي)، لم يتحلحل، أخذتُ الأكياس فتحتُ كيسًا وأعطيته موزة وأعدتُ (شكرًا حبيبي) ولم يتلحلح، طلب ماء....

قلتُ له في الشقة (سأدخلُ غرفتي أبدل ملابسي وأرتاح؛ إذا

خرجتَ أغلق الباب دون صوت) وضعتُ له كأس الماء على الطاولة، ودخلتُ غرفتي.

اسمي كاملاً هزّ البيت، أول مرة منذ عرفتُ أخي يلفظ اسمي كاملاً، دائمًا يدلعني بسوسو، نفرت من السرير الصرخة الفجيعة أعطبت من مخي مركز الوعي، مشيتُ في الممر المعتم أتحسسُ في الجدار مفتاح الإضاءة، حركته في الاتجاهين ولم أحصل على نتيجة، في منتصف الممر سرتُ على ضوء شمعة بعيد يأتي من وسط الصالة، دخلتُ الصالة المشرقة بالشمعة، على غفلة مسكني أخي -بضغط شديد- من عضدي، وضع الشمعة بين عينيّ وحركني في اتجاهات الشقة كلها؛ لا ثريات تتدلى من السقوف لا كنبات لا طاولات لا سجاجيد على الأرض لا أجهزة إلكترونية ولا أدوات مطبخ ..أخذ عليّ تعهدًا بألاّ أكون إلا سعودية (مفهوم سعودية.. أنتِ سعودية، لستِ مصرية أنت سعودية!!).

أمشي في الشارع بصري على ما يحط عليه خطوي، تنادي صاحبة فرش الخضراوات (يا أبلا يا أبلا) التفت لها وحركتُ إصبع السبابة شرقًا وغربًا، وقلتُ بصوت وطيء (أنا سعودية) ... ينادي صاحب عربة الذرة المشوية (درة يا جميل أبل متنام العصر) رفعتُ السبابة راحتْ جنوبًا وشمالاً وبصوت منخفض (أنا سعودية) وقع نظري على صاحب البرتقال يقف في طابور الفرن يشير لي بإصبعه بالمكان قدامه أرفع السبابة على استحياء نصف ارتفاع وأحركها علامة (لا) وتخرج الكلمة مهموسة من فمي (أنا سعودية).

الرفض

إلى والدي،،،،

كنتُ أهرول، في حين يقف غير مبال ببرودةَ الهواء المصاحب زخمات مطر تسوط رقبته وانحناءة ظهره، كنت حافية يستطيل الدم على ساقيّ يجتمع دائرة تنفجر وتمازج الماءَ الغرِقَة فيه الأرض، ملتُ وأنا أخفي وجهي، تحت ياقة لباسي من تسلط المطر، دخلت حواريَ وأزقة كثيرة، ألتفِتُ لا أجدُه يتبعني، أمرّ به يلعب بالكرة في باحة واسعة يُسدّدها إلى مرمىً بلا حارس.

الدرج طويل، الحجرة ليست في السطح ولا ملحقة بربع من عشرات الغرف لكني داخلها، كلّ شيء فيها يدور؛ الساعة على المنضدة، المروحة في السقف، أوراق شجر خلف النافذة، هناك غيمة استطالت في السماء تخلتْ عن انبعاجها الرَغْد، تصعّدُ القمر وتتبّع بصري ارتفاعَه حتى حدود النافذة وتكسّر شعاعِه في عيني القطة النائمة تحت الأباجورة تطلب الدفء، هششتُها حنُوًّا على ملمسها الناعم من الحرارة المتكاثفة، كأنها لا تعرفني؛ هبّتْ مذعورة، نسيتُ مرور أصابعي ليل نهار تحت ذقنها وفوق عنقها،

شـــردتُ فـــي جهة وخطتمت الأباجورة فـــي جهة. مازالـت ارتجاجات المنضدة: انكـفـت السـاعة على وجهها وارتميتُ على السرير أنـفـخ العلكة تستدير كبيرًا أنظرُ إليها. عـيناي تـلتصقان أرى أرنبة أنفي، أحسّ صداعـًا ودائرة تـنفجـر تغطي لزوجـتها وجهي.

خرجـت من الحمـام يتقاطر الماء من شـعري ثم يتصاعد جريانه على جسـمي ويبلل ملابسـي. فتحت النافذة رشقتُ بالمتبقي منه الحمامة وفرخيها. انتـفـض ريش الصغيرين وتراجعـت الأم عاجزة في حضـرة صغيريها عن الخـفـوق. أخذتُ أحد الصغيرين. هناك في زاوية إضاءتها خافتة استـقـر.

دوي وصوصـة راجيـة مقهـورة أتـتبّعُـها لا تصدر مـن اللذين أرى طيفهما خلف الزجاج ولا من المنكمش جواري. أكثر من مرة يسـحب منقـاره ويطيّـر قطرات الماء. غاصتُ حبة أرز فـي الســجادة بهـزّة من رأســه. يبيـع الحياة من أجـل الفقد. وضعـتُ الفرخ فـوق أخيه ليلاً، فسـقـط يتوسـط الأم والأخ. تراجعـت الأم محافظـة على وضعيّة جسـمها المنكمـش. الشـمس تشـرق والأم وفـرخ واحد فـي زاوية. جُـنُـوها شديدٌ عليه. تنفر من رائحة الآخر.

ناديتُ مَـن كان يسمع لي....

يشمّ رائحة غيري فيّ...

يتراجع... ثم يستدير كأني لستُ منه.

العمائم

أثنــاء وقـوفي حتى تعبرَ عرباتُ الباعةِ وأقطع الطريقَ المعبَّد المغطّى بالتراب إلى الجانب الثاني من السـوق تأمَّلتُ كثيرًا بقعةَ الدمِ المخلوطةِ بالماء. وكان هذا أكثرَ شــيءٍ يُثيرُ اشــمئزازي. وقفــتْ امرأةٌ تتحدَّثُ مع أطفالِها الثلاثة على جانبي الأيمن، ووَقفَ على جانبي الأيســر رجلٌ يَحمــلُ أغراضًا فــي يده وعلى رأسِــهِ. (لا بُدَّ أنَّكِ هالكــةٌ! هالكة!) تَذكَّرتُ التوصياتِ.

إلاَّ التجمُّعــات فــي أي تَجَمُّعٍ سَــتَطِيرُ رُوحُكِ، خَشــيتُ أنْ يُظَنَّ أنَّي من رُوَّاد هذا الســوق الشــعبي الذي لا أنتمي إليهــم وأصيرُ بقعةَ دمٍ مخلوطةً بالماء؛ فركضتُ مُســرِعةً خارجةً من الســوق المحسوب على الذيــن لا ينتمون لــي، كان الوقتُ قُبيل المغرب. في كلِّ مَشــيةٍ كنتُ أجْتَنِبُ أيَّ تَجَمُّعاتٍ ولا أتوقَّفُ بجانبِ أكثر من شخصٍ واحد.

صعدتُ ربوةً وكنتُ ســعيدةً بابتعادي عن الأحياء الســكنيّة وطُرُقِ الســيارات. لاحظتُ فوقهــا فتحاتٍ خارجةً مــن الأرض كنوافذ القبو نظــرتُ منها فكانــتْ أرضًا مَســكونةً مليئةً برجالٍ يلبســون أفخمَ الملابسِ ويضعون على رؤوســهم العمائمَ المُذهَّبةَ، وكُلُّ الذي حولهم

باذخٌ ومذهّبٌ. رأيتُهم يَقودون سياراتٍ من أغلى وأفخر العلامات داخل هذا القبو. سماتُ القُوّةِ والشِّدَّةِ باديةٌ عليهم. لمّا عرفتُ أنَّهم ينتمون للفرقةِ التي أنا منها دخلتُ من تلك الفتحات إلى ما يُشبهُ السقفَ غيرَ المُكتَمِلِ: سقفٌ لا يُغطّي القبوَ بأكمله بل يُحيطُه بمقدار المتر عرضًا بعد السقفِ الأصليّ سطح الأرض، وبمقدار المتر طولاً. انتمائي لهم لم يأخذُهُ قلبي شفاعةً لهم فظَلَّ منقبضًا منهم، وكنتُ وَجِلَةً غيرَ مُطمئنةٍ لهم لن يَدعوني في سبيلي لو علموا بأمري ولن أستطيعَ مُجاراتَهم لو طلبوا مني تنفيذَ أمرٍ ما. تَخيَّلتُ نفسي وقد صرتُ بقعةَ دمٍ مخلوطةً بالماءِ لو سقطتُ في أيديهم، خرجتُ من تلك الفتحة ثانيةً وبدأتُ أركضُ سريعًا مُبتعِدةً عن القبو.

اتَّجهتُ إلى الجنوب حيث نهاية المدينة لأخرج منها؛ ومَخرجُ المدينةِ أو نهايتِها عبارة عن جِسر للسيارة يتَّجه من الغرب إلى الشرق، والعبورُ من تحته باتجاه الجنوب هو الخروجُ من المدينة. تحته تَقفُ شرطةُ الحدودِ. وقبل أنْ أصلَ إلى الجسر بقليل مررتُ بمجموعةٍ من الرجالِ يُشكّلون في جلستِهم شكلَ المربع، يلبسون الملابسَ السوداءَ والعمائمَ السوداء؛ خِفتُ أن يكتشفوا أني لستُ منهم ولا أنتمي إلى فرقتهم فيُصيِّروني بقعةَ دمٍ مخلوطةً بالماء فابتعدتُ على حذر منهم مُكمِلةً المَسير. بعد عِدّةِ خطواتٍ من تجاوزِ هذه المجموعة ظهرتْ لي مجموعةٌ أخرى تَجلسُ الجلوسَ نفسَه وتُشكِّلُ الشكلَ نفسَه إلاَّ أنَّها تَلبسُ الملابسَ السوداءَ والعمائمَ البيضاءَ خوفي منهم لا يَفرُقُ عن خوفي

من الجموعة الأولى فكأنَّ عُودي طَبْلٍ يتناوبان في صدري رعبًا منهم. معرفتي ومعرفتهم أنّي من فرقتهم لا تُنجيني منهم لاختلافي في الكثير مع ما يعتقدونه؛ خِفتُ أنْ يُحيلوني إلى بقعةِ دمٍ مخلوطةٍ بالماء. أكملتُ السيرَ وعبرتُ على غشاوةٍ من أفرادِ الشرطةِ. وفي طُرُقٍ خاليةٍ؛ طُرُق ما بين مدينتين ركضتُ.

رأيتُ بوابةً كبيرة حَديديَّة دخلتُ منها في مكان كأنّه مستودعٌ غيرُ مَسقوف. المكانُ شديدُ الظلمةِ مليءٌ بالكراتين والأكياس المُكدَّسة فوق بعضها، وكانتْ أكبرُ مجموعةٍ من الكراتين مُلاصِقةٌ للجدار الجنوبي. وأنا أتسلَّق الكراتينَ سَمِعتُ أصواتَ رجالٍ يَدخلون من البوابة فأخفيتُ نفسي خلف الكراتين. وحين خرجوا تَسلقتُ الكراتين وقفزتُ من على السور تأكّدتُ أنّي في أطرافِ المدينة؛ فواصلتُ الركضَ في أرضٍ غيرِ مأهولة.

دخلتُ أرضًا رمليةً مُسوَّرةً رمالُها حمراءُ طينيَّة مُبللَّة ومُجزّأة من الداخل بالطوبِ على شَكلِ غُرفٍ صغيرةٍ. الطوبُ المَرصوصُ كان من ثلاثةِ أدوارٍ إلاّ غُرفة واحدة كانتْ أدوارُ الطوبِ فيها مرتفعةً كارتفاعِ الغرفِ المنزليّةِ غير المسقوفة؛ دخلتُها بها مِغسلةٌ وفوق المِغسلةِ نجفةٌ بيضاءُ. فتحتُ الصنبورَ وتوضّأتُ وجاءني إحساسٌ أنَّ هذه الأرض مَقبرةٌ مباشرةً كمَنْ يُفسِّرُ رؤيا مَنامٍ قلتُ (المقبرةُ أرضُ أمانٍ، والنجفةُ نورٌ يَظهرُ بَعدَ طولِ مُعاناة. وأصحابُ الملابسِ السوداءِ والعمائمِ السوداء؛ عملٌ أسودُ واعتقادٌ أسودُ. وأصحابُ الملابسِ السوداءِ والعمائمِ البيضاء عملٌ أسودُ. واعتقادٌ أبيضُ. واحتَرْتُ في

تَفسيرٍ لأصحاب العمائمِ المُذهَّبةِ الساكنين تحت الأرض وهم أشدُّ مَنْ وَجَفَ قلبي منهم ورَعَبَ). خرجتُ من الأرضِ المقبرةِ راكضةً في طريقٍ مُعبَّدٍ طويلٍ خالٍ من كلِّ شيءٍ مُكمِلَةً خروجي من البلد باتجاه الوطن.

التكييف

(١- أ)

- لا صيفَ، لا شـتاءَ، لا خريفَ نحن في الربيع؛ وعَلا صوتُ فرقعةِ كيسِ النايلون وطَرْطَشَ الماءُ وبَلَّلَ شعرَها وصدرَها وتَشرَّبتْ ملابسُها الماءَ ولامستِ الرطوبةُ جِلدَها؛ فانتعشتْ بالبرودةِ وعلّقتْ على كلامِهِ: ربيعنا جاء في عِزِّ القيظ. ضَحِكَ وقال: سنأخذ مَقطعًا مُسجلاً في الجوال. ضغط التسجيل، وطُرِقَ البابُ. وَضَعَ الجوالَ على المُرَكّى، وذَهَبَ باتجاه الباب.

٢- أ

طَلَبَ منه رجالُ الشرطةِ القدومَ معهم إلى المركز حَاوَلَ الاستفسارَ عن السبب، قالوا له في المركز.

(١- ب)

سَمِعَتِ الحديثَ ورأتْ الموقفَ من فراغ زاوية الباب المفتوح. وحين غادرتْ الشرطةُ صكّتْ البابَ وتقدّمتْ... وارتمتْ على الأرض جالِسَةً وتنهّدتْ بسعادة وقالتْ: (البَرَكَة!! يا ليتها كانتْ البَدَرَى!!).

٢- ب

قبل خروج سـيارة الشـرطة من الحارة أَخَذَ منهم الإذنَ لِجلبِ الجوال مـن البيت -للضرورة لو احتاج الأمـر- دَخَلَ البيتَ، أَخَذَ الجوالَ من فوق المرْكَى.

٢- ج

في قسـم الشـرطة طَلَبَ المُحَقِّقُ منـه الاعتـرافَ بصِلته وعلاقته بأكياس المسـحوق الأبيض الموجودة في سـيارته الأجرة؛ بأغلظ الإيمان أقسـم أنَّه لا صِلة له بها، وقال: إنَّها مَكيدة. ردَّ الضابطُ: اتركْ عنك الأفـلامَ المصريَّة، عرضنـا عليك الرجلَ الذي رأى الكيسَ في سـيارتك قبل قليل ولم تَعرفْه ولم يعرفْكَ وقد مرَّ بجانب السـيارة بالصدفة. قال: انْظرْ إلى حالي وأنتَ تعرف أن لا علاقة لي بالأكياس.. أخذتَنِي من بيتي ورأيتَهُ منزلاً شـعبيّاً في حيٍّ شعبيٍّ، بابُه دون جرس، وهو غرفتان تُطـلان على حوش، ومطبخٌ رُفوفُه مـن جَميعِ الصناديق، وحمَّامٌ لَمْبَتُه سـهَّاريَّة خوفًا من الفاتورة، حتى الجوَّال للاستقبال فقط... مكالمات الزبائـن ليصفوا عناوينَهم... أين تذهب فلوسُ التجارة إنْ كنتُ أُتاجرُ بالمخـدرات؟!!. طَلَبَ المُحَقِّقُ منـه بيانًا فيه معلوماتٌ عـن الذين ركبوا معـه اليوم؟ كم عددهم؟ مَنْ هم إذا كان يعرف أحدًا منهم؟! مِن أين أخذهم؟ وإلى أين أوصلهم؟!.

٢- د

في ظلام غرفة الحجز حَسْبَلَ على المتسبِّب له في هذا، أَخرجَ الجوَّالَ وضغط كيفما اتَّفق للإنارة؛ الشاشـةُ مازالتْ على وَضْعِ الفيديو وقد

انتهتْ المُدَّة الزمنيَّة لتسـجيلِ مَقطعٍ. أمران أمامه على الشاشـة: (تشغيل) - (إرسال). تَبسَّمَ حسرةً على نفسه وضَغَطَ التشغيلَ: ظهرتْ سجادةُ الحوشِ الرخيصةُ بنقوشِها الباهتةِ. جاء صوتُ طَرْقِ البابِ وتَقْتَربُ الشاشـةُ من المَرْكَى ثم تَصِيرُ سوادًا. سَمِعَ صوتَ فتْحِ البابِ ثم سُكُونًا يَعمُّ الشاشةَ السوداءَ فجاء صوتُ البابِ ثانيةً وهو يُقفل فصَوتُ خطواتٍ تَعلو قادمةً ثم سَمِعَ صوتَ تنهيدةٍ يُستَنبَطُ منها معنى الارتياح عَقِبتها جملة (البَرَكَـة!! يا ليتها كانتْ البَدَرَى!!) فسُكُون على الشاشة السوداء حتى انتهاء المدة الزمنية للتسجيل.. فَزَّ يُنادي طَالِبًا مُقَابَلَةَ ضابطِ التحقيقِ.

٢- هـ

قال للضابط في مكتب التحقيق: هناك شخص لم أذكره ضمن الركَّاب؛ لا لأنّي نَسيتُه، بل لأني لم آخذ منه حقَّ التوصيل أو كما يُقال ليس زبونًا (خُرُوجي صباحًا تَصادَفَ مع خروج جاري الساكن قبالة بيتي، ألقى السلامَ وبدأ يمشي. قلتُ له: اركَبْ! أوصلكَ!! ردَّ: قريب.. قريب.. المشوار قريب آخِرِ الشارع. شكرًا. قلتُ له: أنا سأسيرُ في هذا الاتجاه.. نهاية الشارع.. أوصلك!!) هو، هو مَن وَضَعَ الأكياسَ بالاتفاق مع زوجتي؛ يُريدان التخلصَ مني.. هما على علاقة.

(١-ج)

تحتضنُ أطفالَها النِّيام وتَعِدُهم بصوتٍ عالٍ سأشتري المُكيِّفَ، سأطلُبُ راتبًا من الشئون الاجتماعية، سأطلب مِن خالِكم أنْ يأخذكم معه إلى الطائف، إلى أبها، إلى أيِّ مكان!! لن تضطروا

إلــى سَــكْبِ الماءِ فــوق رؤوســكم لتُلطِّفوا ســخونةَ أجســادِكم، ســأطلبُ من الجمعيات الخيرية كُلَّ وســائلِ التبريد. نظراتُ أطفالِها المُتنبِّهة مَزقتْ قائمةَ الأمنيات المُشــرَعة أمام عينيها وعادتْ بها إلى التساؤل عن سببِ أخْذِ الشــرطةِ زوجَها: مُصيبة لو كان الأمرُ إجراءً بســيطًا في مركــز المرور وعَادَ إلى البيت بعد لحظــات!!. تَطلّعتْ إلى الفتحة المَســدودة بالأبلاكاش في جدار الغرفة: يــا ليته يَغيبُ ريثما يُطِلّ عليكم وجهُ التكييفِ منها يَنفثُ أنفاسَــه الباردةَ في رئاتكم؛ أخي والجمعيات الخيرية لن يسألوا غدًا عنا إنْ عَادَ.

ثلاثة في ثلاثة

(قصة للترفيه .. لترفيه الخائبين في الدراسة والعاطلين عن العمل مثلي)

٢ «ابدأ أنت»

(كان يا مكان هنالك ثلاثة قرروا بناء........)

١ «ادخل في الموضوع مباشرة، لستَ بصدد حكاية قصة»

(ثلاثة قرروا بناء منازلهم من مواد غذائية؛ أحدهم اختار الجبن الرومي مادة للبناء، متماسك ويسهل تفصيله إلى غرف....)

١ «غرف!! الغرف غير مطلوبة»

(لو أرادوا، وهو لا يسيح في حرارة الشمس مثل الزبدة، ولا يتجمد في البرودة، سيرشّ حواليه مبيدًا حشريًّا حتى لا يشبو بالنمل أو بأي حشرة زاحفة كانت أم طائرة، وخاصة الفئران، والذي يبدو أنه استوحى فكرة بيت الجبن الرومي منها.

في ليلة من الليالي القمرية....)

١ «تقصد ليالي التمام»

٣ «تمام، بيض لا يهم، وسأغير (في ليلة من ليالي المحاق «ولا تقل ليلة السرار» حيث صاحب بيت الجبن الرومي يغط في سابع نوم، يعلو شخيره... لا لم يكن ذا شخير لأن الكلب الذي هجم يأكل أطراف البيت سيهاب الإقدام لو أنه سمع شخيرًا أو صفيرًا. مادة البناء كانت من مشتقات حيوانية ولم يكن هذا في الحسبان.....)

٢ «تافهة... حتى الكلب لو كان قطًّا لكان أنسب... هات الثاني!! وانتبه!!! لا تذكر أنه بنى بيتًا من البسكويت والكاكاو والسكر لأننا رأينا ذلك صغارًا في الرسوم المتحركة حين بنت الساحرة الشمطاء بيتها من هذا؛ تغري به الأطفال لتصطادهم وتضعهم في الفرن......»

١ «دعه يبدأ!!»

(الثاني بنى بيته من الخبز الفرنسي، كان لا يشعل النار فيه، منع الطبخ، يحضر الأكل من المطاعم كي لا تحيله النار بيتًا محمصًا....)

١ «وليكن بيتًا محمصًا»

٣ «يفقد رونقه، والجمال مطلوب (في ليلة من الليالي... لا، في أحد النهارات لتكن التاسعة صباحًا.. مثلاً.. أو في أحد النهارات وهو في العمل، أظن المهنة غير مطلوبة، غامت السماء وأرعدت وأبرقت وبدأت قطرات المطر تسقط واحدة بعد الأخرى، ثم تزايدت وصارت سيلاً مدرارًا أذاب الخبز. الثالث اتخذ مادة البناء من التفاح....)

٢ «من المؤكد أنه من الأغنياء!!»

٣ «لا يفسر الكلام على هوىً، هي مواد غذائية لا غير، تقسيم

ثلاثـي إلى طبقـات اجتماعية غير وارد؛ لذا سأسـتبدل بـه البرتقال. السـابقان بنيا بيوتهما من قطعـة واحدة. جبنة رومي واحدة بحجم البيـت. وخبـزة فرنسـية واحدة بحجـم البيت أيضًا (هذا اسـتغرق وقتًا؛ يضع برتقالة على برتقالة حتى وصل إلى السـقف الذي أصبح مكشـوفًا. أمكنه وضْع البرتقالِ طوليًّا. الوضع العرضي تعسر عليه. اهتدى إلى وضْع برتقال السـقف بالشكل الهرميّ؛ طبقة أقلّ تتكئ على طبقة أكثر حتى وضع برتقالة واحدة رأسًا للسقف. جعل الباب مفتوحًا؛ أي حركة سينهدم البرتقال على رأسه. بناه في منطقة غير مأهولة وبعيدة عن الطريق والمصانع وكل ما يثير اهتزازاتٍ. رشّ البيت بمادة حافظة للأغذية. لا يحتاج رشّ مبيدٍ حشـري حواليه؛ فليس من مشـتقات حيوانية. في نهاية الشـهر السـابع وبداية الثامن؛ حيث الشمس وهّاجة نشّافة لعروق البشر نشّفتْ ماء البرتقال بخّرته في خبر كان. غدا البيت قشـوراً ناشفة متيبسة. يوم وراء يوم حبيبي ما جاني نوم... عفوًا. يومًا وراء يوم سـهُل تفتيتـه. لكن لم يحدث هذا إلا حـين هبّتْ ريح تسـوق أمامها رمال المنطقـة المعزولة المبني فيها البيت. الرابع..........).

١ «حسبك. انتهيتَ. هل تنوي فتح محل تموينات غذائية!!!!»

٢ «سأبدأ أنا (الأول حرامي. الثاني شرطي. الثالث.........)

١ «يـا حرامـي. رأينـا هـذا في الفيلـم المصري «مواطـن ومخبر وحرامي»»

(الأول ملك الموت. الثاني الموت نفسه. الثالث كائن حي.......)

٣ «أنت لم تفهم أصول اللعبة بعد «عمل واحد بطرق ووسائل مختلفة» في حالتك الملك سيأمر والموت ينفذ. والكائن سيموت. أعمال مختلفة «أمر وتنفيذ وحدوث»»»

(اتفق ثلاثة على قطع مسافة ما على سطح البحر المبّرز ليس من يصل أولاً كما الحال في سباق الخيل؛ المبّرز من يصل بأمان إلى الشط دون ضرر يصيبه؛ اختار الأول جذع شجرة يطفو فوقه ويقطع به المسافة. الثاني اتخذ مزلاجين لأنهما الأسرع والأسرع بكثير من ذلك الغبي الذي سيطفو به جذع شجرة. الثالث لا تعنيه السرعة فهي غير مشروطة هنا. لأمثاله الذين لا يتقنون الغوص تعنيهم السلامة والوصول بأمان. حشر نفسه في إطار عجل منفوخ. بينما الثاني أبو مزلاج يتمخطر ويتمايل. يذهب ويعود هازئا بالصرصار المتشبث بجذع الشجرة بأطرافه الأربعة. والجعران المتبالصة عيناه داخل الإطار المنفوخ؛ فجأة ارتفعتْ موجة كأنها تسلّمتْ لتقوم بعملها رشوة من شخص ما. تطاولت جداً وأقبلت فاتحة فاها الخالي من الأسنان تبغي ابتلاعهم -أعرف أنكما تقولان في نفوسكما الأفضل أنها دون أسنان لئلا تمزقهم مضغًا. لكن لا. الأفضل لو أنها بأسنان لكي ينحشروا بين الأسنان خاصة أبا مزلاج الذي سيواجهها منفرج الرجلين- على كلٍّ حين أقبلت الموجة فاردة العضلات ظنّ أبو مزلاجين أنه سالم؛ سيدور دورة داخل دوامة الموجة كما يفعل محترفو رياضة ركوب الأمواج. لكن الموجة احتاطت لذلك ومرقتْ بين رجليه؛ ذهبتْ واحدة شرقًا. والأخرى غربًا.

ولم تُفلتِ الموجة أبا الجذع لفتّه بلسـانها كما يلفّ لسان سحلية ذبابًا يتأمل فوق علبة تونة فارغة........)

٣ «ليتك تترك التشبيهات العبيطة وتنهي دورك»

١ «لو كنت تشعر بقلقي لدنو دوري ما استعجلته، ولاستعذبت تشبيهاته السخيفة»

(أبــو إطار منفوخ، لفّ ذراعيه بكل شـحناته حــول الإطار، فهل حياة لمن لا يجيد السباحة؟! تخيل نفسه لو طار الإطار وسط متاهة الموجة؛ فإنه سيتلاشى فيها كورقة حامت ثم حامت وسقطت داخل بالوعة مفتوحة.......)

٣ «بالوعة، الألفاظ سعد»

(وفعــلاً، هذا ما وقع؛ طار الإطار، ولم تفـده طاقاته المبذولة، انقلب رأسًا على عقب بعد توالي لجة الموجة المرة تلو الأخرى.).

(ثلاثة لم يسـتخرجوا جوازات سـفر؛ عليهم أن يعبروا الخمسـةَ الأمتـار المنطقة الحدوديـة لبلادهم -ولئلا تركبا الخيال فيشـرق بكما ويغـرب، وحتـى تطمئنـا للهـدف- الهدف حضـور أول حفـل غنائي لمطربتهـم المفضلة بعد إجراء ثاني عملية تجميل وهو هدف شـرعي لا يزفهم إلى غوانتانامو، واســم المطربة لكما، كلٌّ لذوقه. لأن الأرض الفاصلـة رمال ناعمة لا صخور فيها ولا كثبـان اختار الأول حفر نفق تحـت الأرض، يتفادى عيون حرس الحدود وآذانهم بعدم اسـتخدام آلات حفر ضخمة صوتها رجّاج واعتمد طريقة الحفر بملعقة. الثاني اعتمد القذف بالنبّالة؛ أحضر مطاطًا كبيرًا ربط طرفيه بشجرتين متقابلتين

وضع في وســط المطاط مرتبة كرســي، الثالث اعتمد التدحرج داخل كــرة؛ يصنع كرة كبيرة ويدخل فيها ويدحرجها بيديه. أبو كرة تدحرج وســقط في خندق حفره حرس الحدود لمراقبة تجار المخدرات المتسـللين، التـمّ عليه الجيش وسـاقوه إلـى البوكـس لترحيله إلـى المركز. أبو ملعقة قاس الأمتار الخمســة دون زيادة، ودون أن يحتاط ولو مترًا واحدًا زائدًا عليها، أخرج رأســه وإذا به تحت قدمي جندي، ســحبه من شعره ورحّله عبر البوكس إلى المركز. أبو نبّالة طلب من بعض سكان القرية بعد أن تربع على المرتبة ســحبه إلى الخلف إلى أقصى امتداد المطاط، ثم رفعوا أيديهم عنه فانطلق يســبح في الفضاء وهوى في صندوق البوكــس الذي تحــرك به في اتجــاه المركــز، حيث حراس الحــدود كانوا يرصدون عبوره في فضاء الخمسة الأمتار).

١ «أخيرًا، انتهينا من الفكرة المملة»

٣ «لنطبق هذا علينا!!»

١ « «مــا كنــش حتة برج يا عم بــوش» ما كنش حتة لعبة نقضي وقتنا كله فيها»

٢ «الليل طويل، لا بأس في تفريق مزيدٍ من الوقت»

٣ «يبتكر كلّ منا طريقة يموت بها»

١ «إلا الألم!!»

٣ «ومن قال إننا سنموت من بوابة الألم؟!»

٢ «يا ناصحًا، كل الطرق المؤدية إلى الموت فيها ألم!!»

٣ «نفكر، نصل!!»

١ «سأموت من الشرب؛ سأشرب لبنًا كامل الدسم حتى الموت»

٣ «سآكل حتى الموت؛ الشحم المطبوخ خير مساعد في هذه الورطة»

٢ «سأجمع بين الشرب والأكل؛ اللبن والشحم حتى الموت»

٣ «ليحضر أحدكما اللبن والشحم المطبوخ على وجه السرعة!!»

* * *

٣ «سقط الثاني، أمات؟!»

١ «إنه يتنفس، فقد الوعي لا أكثر»

* * *

١ «الدور عليّ لأسقط أرضاً مثلهما»

* * *

تساقط الثلاثة، ماتوا، دخلوا في الغيبوبة من التخمة، لا أدري؟! رآهم شخص ما صباح الأربعاء في طريقه إلى العمل وحملهم إلى مشفي، لا أدري أيضًا!! عهدي بهم ثلاثة أطياف وهّجهم قليل ضوء من التلفاز وسط عتمة الرصيف، مرقتُ بمحاذاتهم عبر الطريق المعبد في العاشرة مساء إحدى الثلاثاوات قادمة من المطار -في واحدة من إجازاتي- إلى البيت..... جاء صوتها زاعقًا، وجاء ردٌّ لصوت شاتم، تداخل الصوتان، أنظرُ إلى الأعلى أراها تدلي برأسها إلى أسفل، وأنظرُ إلى الأسفل أراها ترفع رأسها إلى الأعلى. رأسي بين الرأسين ولساني في مخزنه في حين الآخران يخرجان طويلاً يتحركان هبوطًا وصعودًا؛ مياه غسيل مرأة الطابق الثالث تبلل غسيل مرأة الطابق الأول،

-الحمد لله- ليس لي غسيل يرفرف في شرفة الطابق الثاني؛ غسيلي في النشّاف. قلت للعلوية: السطح قريب منك. حرري الشرفة من رايات ملابسك خاصة أنك عروس في شهر العسل وارحمي المسكينة من بللها. وقلت للسفلى: السطح بُعده شاقّ عليك. والنشّاف سعره يكلفك الكثير؛ حلال لك الشرفة شوّهي منظر العمارة بألوان ومقاسات ملابس أطفالك الثلاثة. اختفتْ رؤوسنا الثلاثة من فتحات الشرفات الثلاث. أشعلنا المصابيح المعلقة في أسقف الشرفات. دخلنا الصالات وأغلقنا وراءنا الأبواب؛ المساء قادم وجيوش البعوض -مستعدة- تقف في مدخل الحارة.

خيال طفلة

في أول يوم دراسي بعد عودتنا من إجازة نصف السنة الدراسية خبّرتْنا إدارة المدرسة أن فصلنا قد نُقل إلى الدور الأرضي، سعدنا كثيرًا فقد أصبحنا أول الواصلين إلى مقصف المدرسة، قريبين من فناء المدرسة، نوافذ فصلنا تطل على الحديقة، وصُرِف عنا تعب الدرج صعودًا وهبوطًا. رنَّ جرس الحصة الرابعة، أخرجنا كتب اللغة العربية استعدادًا لدخول معلمتنا، فإذا بامرأة تتوكّأ على عكازين تدخل لتعلن أنها مدرسة اللغة العربية، وأن أستاذتنا القديمة ستكتفي بتدريس الصفين السادس والخامس. قالت لستُ غريبة، درَستُ هنا في طفولتي فعائلتي تسكن في هذا الحي، ولما كبرت وبسبب الزوج انتقلت إلى حي آخر، وهأنذا أعود إلى مدرستي الابتدائية بعد عودتي للإقامة مرة أخرى مع أسرتي.

قررتْ أن تكون الحصة للتعارف والدردشة بما أنها المرة الأولي التي تلتقينا فيها، بدأت تسأل كل واحدة عن اسمها، وأين قضت إجازتها؟ وكيف؟ جاء دوري فقامت من مقعدها تتعكّز إلى حيث أجلس، فحصتني بنظرات غريبة، قلت اسمي وأننا قضينا العطلة في رحلة

سياحية بالسيارة تجوالاً في مناطق المملكة. نظراتها المريبة مازالت مسلطة علي مع إنصاتها لحديثي.

في إحدى حصص التعبير طلبت منا كتابة موضوع عن مساعدة الآخرين، وكان دفتري أول ما تناولتْه، ورمته بعنف وقالت بصوت حاد خفيض كاذبة. جميع صديقاتي كتبن مثلي يجب أن نساعد الفقراء ونعطيهم الطعام والكساء ونزور المرضى في مشافيهم؛ فعنوان الموضوع وعناصره تحتم التقيُّد بها. هل كان عليّ مخالفة العناصر وكتابة ما يناقضها؛ من صراخٍ في وجه الضعيف وحرمانٍ للفقير، وترك العاجزين يواجهون المخاطر؟!

ذات يوم طلبت مني أن أتأخر غدًا في الخروج؛ هو موعد مناوبتها، طلبتني للمساعدة في تسيير خروج الطالبات. في الغد وعند خروج آخر طالبة من المدرسة، اسْتَأذنتها في المغادرة إلى بيتنا القريب، استسمحتني أولاً في مصاحبتها إلى غرفة المدرسات في حاجة ملحة، وهناك احتجزتني؛ بقفل باب الغرفة بالمفتاح، وانهالت علي ضربًا بإحدى عكازتيها؛ ترفع العكازة عاليًا وتهوي بها على جسدي الصغير. الرعب فاق الألم؛ فلم أشعر بالوجع بقدر شعوري بالهلع. عصبيتها وهياجها أفقداها التوازن، والسيطرة على تمركز العكازة الأخرى مع نوعية البلاط الزلقة؛ فتهاوتْ ساقطة على الأرض، فأسرعتُ وسحبت العكازين من الأرض، وأخذت المفتاح واتجهت إلى الباب المقفول أدرت المفتاح، ثم أخذته، وخرجت مغلقة عليها الغرفة بدورتين من المفتاح، ومن الفناء الخلفي للمدرسة رميت المفتاح والعكازين، ثم عدت إلى باب الخروج مغادرة إلى البيت.

توجهتُ مباشرة إلى غرفتي، رفضت تناول الغداء، ودخلت تحت غطاء السرير أبكي بشهقات عالية.... الطريق طويل والظلام المتكاثف يحيط بنا كأننا في بحر من سواد يتماس مع أفق داكن، برد شديد ابتدأ بتساقط المطر، مسافة أكثر من ألف كيلو متر ترافقها الجبال العالية القاتمة، كنت ككل الأطفال الذين يهربون من الواقع إلى الخيال، ولكل طفل خيالاته التي ترسم له ما اختزنه عقله الباطن من مناظر رعب. نافذة السيارة ترميني بوخزات الصقوعة، وبمنظر امرأة تطل من تجاويف الجبال الحالكة، لها شعر طويل، تلبس جلبابًا أبيض، تسيل من فمها الدماءُ، تُغرق يديها وتَصبغ ملابسَها بالحمرة، صاحبني هذا المشهد البشع المؤطر بالنافذة ولاحقني بصحبة صوت الرعد طوال انكماشي في كرسي السيارة، وزاد رعبَه لمعانُ البرق إذ يُظهر امرأةَ الجبال الملطخة بالدماء وهي وتمزق بأسنانها أجساد أطفالٍ تأكلهم.

حادث سير على جانب الطريق سيارة مدمرة، في حالة صعبة جدًا، سافلها عاليها، نزل أبي بعد أن توقّف مصطحبًا معه أخي وكشّافًا للإنارة، استدارا في سائر الاتجاهات بحثًا عن أحياء، فلم يكشفا إلا عن أجساد متناثرة مفارقة الحياة. العتمة وصور آكلين لحوم البشر والغول وكل مناظر أفلام الرعب تشكلت في دجى الظلمات أمامي، نزلتُ أستعجلُهما وأترّجاهما أن يعودا خوفًا من وحوش الفلاة، تخبطت في صبغة السواد الماحية ما عداها، كشحةُ برق مكّنت عيني أن تلتقيا بعينين تحت كتلة الحديد المهروسة، فيهما توسلٌ ورجاء، امرأة

الجبال الملطخة بدماء أجسادِ الأطفال الممزقةِ بأسنانها مسيطرة على عالمي الطفولي. بدأتْ تئن أناتٍ لا يسمعها إلا القريب منها جدًّا، وتخبرني بعينيها أن أطلب لها النجدة والمساعدة. أنا الوحيدة القريبة منها، وأنا وحدي أسمعها وأنظر إليها؛ لكنني أخفيت أمرها لم أخبر أبي وأخي كتمت الاستغاثة. صرختُ بهما أن يستعجلا العودة. لم أشر إليها ولا إلى الخرم الصغير من الحديد المتآكل الذي يُظهر نصفها العلوي، حتى إضاءة سيارتنا الخافتة لعبت معي لعبة الكتمان؛ فجاءت في اتجاه مستقيم لا ينكسر إلى تلك الجهة التي ترقد فيها المرأة. ظل وجهها ونظراتها يشعان مع كل لائحة برق تشق السماء. صحت بأبي وأخي؛ فعادا، وركبنا السيارة بعدما تأكدا أن لا أحد على قيد الحياة، وبقتْ تلك الفتحةُ الضيقة التي تُظهر المرأة في هذا الظلام الدامس سرًّا لم يُكشف لأحد.

الأجل

استغرب مجيئه:

- أهلا! ما هذه المفاجأة السارة. آخر شيء يخطر على البال أن يرن الجرس لأجد وراء الباب عم سليمان! تفضل يا رجل كيف حال الأولاد دائمًا أرسل سلامي لك معهم. يصل أو يطيّرونه؟!

- بل، يصل.

قدم له القهوة والتمر بعد حديث عن مشاق الحياة والمعيشة سأل الرجل الكبير الشاب: ما أخبارك؟

- ابشر يا عم! سأتزوج فاتحتُ إحدى العائلات. والحمد لله استقريتُ في الوظيفة.

- ما شاء الله.

بعد سكتة قصيرة أعقب الرجل الكبير:

- كم عمرك؟

رد الشاب: ٢٧ سنة.

- أبوك عندما مات كم كان يبلغ من العمر؟

- ٦٣ سنة.

- وأمك؟

- ٦٧ سنة.

- يظهر أن عائلتك عمرها المفترض في الستين.

ضحك الشاب وقال: ربما.

- هل سمعت أن أحدًا من عائلتك مات فوق الثمانين؟

-لا، لا أظن، غالبًا يموتون في الستينيات أو السبعينيات.

- ألاّ تخاف من الموت؟!

– كيف يخاف أحد من الموت؟! وهو مكتوب على كل بني آدم.

– يعني ألا يشغلك أو يقلقك أمر الموت؟!

– لا، أبدًا، هل أنا الوحيد الذي سأموت في الدنيا، جميع الناس هذا طريقهم.

- معنى هذا أنك تستمتع بحياتك دون أن تحسب حساب يوم موتك، ولا تزهد في الحياة بسبب هاجس الموت.

- لا، وإلاّ كنتُ غير هؤلاء الناس، لا أحد يفكّر في موته، يعيش حياته كما هي، ومتى جاء الموت، فهو حكم.

- إذن أنتم عائلة متوسط عمرها السبعينيات والستينيات.

- يا مَن يعيش!

- أنت، إلى أي عمر -في اعتقادك- ستعيش؟

- تقصد أبلغُه لأموت... لكل عائلة وشعب متوسط عمر وعائلتي متوسط عمرها في الستينيات والسبعينيات.

- وأنت أذن ستموت في الستين أو السبعين.

- ربما –مثل جميع أفراد العائلة- بل مثل جميع أفراد البلدة.

- ما أقصى عمر يتمناه الإنسان ليموت فيه؟

- طـول عمرنا نسمع في الدعاء «اللهم مد في عمره حتى يصل مئة عام»، «يا رب دعه مئة عام»، «إن شاء الله يعيش مئة عام»، لكن هذه على سبيل المبالغة في الدعاء.

قال الكبير: ماذا لو مت أنت وعمرك مئة؟!

قال الشاب: يا الله، ما هذا؟! معقول! أعوذ بالله من الهرم.

- اسمع! يا بني، إذا قلت لك إني أعرف الدقيقة والساعة واليوم والسنة التي ستموت فيها ماذا ستقول؟!

- أقول «استغفرِ الله!» لا يعلم الغيب إلا الله.

- وإذا قلت لك إن عزرائيل أتاني في المنام، وأخبرني بدقيقة وساعة ويوم وشهر وسنة وفاتك ماذا ستقول؟!

انساحت رشفة القهوة حارةً في جوفه، وكأن ظلمةً غشيتْ لثوانٍ المكانَ، وصداعٌ يضغط جبهته لم يستطع معه رفع جفنيه، قال: كيف؟!

قال الكبير: رؤيا منام.

- ماذا أخبرك؟

- لا، يا ولدي، عشْ حياتك، واستمتع بها، وتزوج، وهات الأولاد، وكن كالبشر الذي يعيش إلى أن يحل موته ويرحل، وهذا ما قلتَه أنت أيضًا قبل قليل.

- أرجوك، بماذا أخبرك؟

- يـا بني، تعوّذ من الشـيطان، وانس الأمـر، وعش حياتك مثل بقية الناس الذين لا يعلمون ساعة موتهم.

- بل، أنت تعرف.

- أستغفرُ الله! -أقول لك- عزرائيل أخبرني في المنام.

- أرجوك، طالما أن الرؤيا رسالة، فرجاءً أخبرنيها!

قال الكبير: كنت أظن أن الرؤيا بشرى خير ولكن بما أنك تعوّذتَ من الهرم، تغيّرتْ نظرتي للرؤيا. على العموم في أيِ يوم نحن، وفي أي شهر، وفي أي سنة؟

قال الشاب: في اليوم السابع، الشهر الأول، سنة ٢٠٠٨ ميلادية.

قال الشـيخ: أخبرني عزرائيل في المنام أنك سـتموت في السـاعة الرابعة عصرًا، في اليوم الحادي والعشـرين، الشـهر الحادي عشر، عام ٢٠٩٧ للميلاد.

خرج الشيخ، ودخل هاجس الرؤيا مُقصِيًا سائرَ شئونِ حياة الشاب. شـغله عن كل ارتباطاته الدنيوية، وعن كل مـا تقتضيه روحه، وعن كل احتياجـات بدنه. تطل تفاصيل الرؤيا في جلسـاته ورقاده، وحتى في صحون طعامـه، جافى النوم، ورفض الطعام، وغاب عن العمل، لا يرى إلا ذلك اليوم، ولا يسمع إلاّ صوت الشيخ وهو يذكر وقت الساعة، وتاريخ اليوم والشهر والسنة. كل دقيقة تمر تسرق نفَسًا من أنفاسه في الحياة، طلوع الشمس مثل غروبها كلاهما يقتل يومًا من حقه.

يقـول لمن يطلب منه الابتهاج والفرح: من أين تجيء السـعادة؛ ولي موعدٌ في الساعة الرابعة عصرًا، في اليوم الحادي والعشرين، الشهر

الحادي عشر، سنة ٢٠٩٧ ميلادية. ولمن يطلب منه إتمام ترتيبات الزواج: ما الفائدة من العائلة؛ ولي موعدٌ في الساعة الرابعة عصرًا، في اليوم الحادي والعشرين، الشهر الحادي عشر، سنة ٢٠٩٧ ميلادية. ولمن يأمره بالمواظبة على وظيفته: لِمَ التعب والشقاء؛ ولي موعد في الساعة الرابعة عصرًا، في اليوم الحادي والعشرين، الشهر الحادي عشر، سنة ٢٠٩٧ ميلادية.

سياسة عوّد الحواس يكن كل شيء مباحا

- أغلقت الباب؟!

- إذن سلط الإضاءة الخافتة!!

نفث أحدهم دخان سيجاره؛ فدخل المكان في غشاوة. مرغنا شفاهنا بالصابون ونفخنا الرغوات؛ فصار المكان أكثر ضبابية في تموجات ألوان الطيف. صورنا الطفل العاري مع طلب أيقونة تكبير؛ تكبير ما نحتاج تكبيره . ثم ضغطنا [إرسال] .

ترددت الكلمة في الصباح والمساء (زلط ملط. زلط ملط. زلط ملط) حتى صارت كـ(صباح الخير [يامعلمين]) . هذا البند الأول. هات البند الثاني!! البند الثاني صعب جدا (دقّ الحديد وهو حام) . حرف الشين. ألف مد. حرف الذال؛ بطريقة ما أضفنا طفلاً ثانيًا. ترددت الكلمة أعلاه في الأعياد والمناسبات. صارت (كل سنة وأنتم [طيبين]). نفذنا البند الثالث والرابع و........

سافرت إلى مصر. في الإسماعيلية ظهري يتكئ على سيارة الفارس الأشقر تحمل شعار (يو إن) أنتظره ينتهي من ارتجاجات الزورق به. لم يذهب عميقًا في البحر يترجرج قرب الساحل. أشار إليّ

بالتقدم، انتظرت الشاب المصري ينهي لفّ وريقات الباجو الخضراء؛ الباجو في مصر (مية مسا عالحلوين) قفز المصري وجلست مكانه. بسطت يدي؛ فردني إلى الرأس بين العمودين في بلدي، أعطاني الأخير كرتون بامبرز وعلبة حليب مجفف للرضع. وقرقوشًا للتسلية.. المكافأة لم ترق لي؛ فأعلنت العصيان.

أغلقت الغرفة بدورتين من المفتاح (طق طق) نزعت لوحة (الاغتصاب في الشوارع أهلاً وسهلاً) من فوق الباب ومزقتها. دخلت الغرفة الثانية بدورتين من المفتاح (طق طق) اشترينا طراطيع وشروخًا من سوق الحمام، أحضرنا سكينة حادة وشمعة ودجاجة؛ غطينا الطراطيع والشروخ بنشارة خشب وقليل من الأتربة. ألصقنا عدسة الكاميرا فغطى المنظر الشاشة؛ شعت نار وتناثر تراب وتطايرت نشارة الخشب؛ (تفجير تفجير تفجير.... ينوّر لياليكم،.... مساء النور والأضواء). أشعلنا الشمعة في ظلام الغرفة فظهر ظلا نصل السكين ورأس أحدنا كبيرين على الجدار، بسرعة متناهية تم إغلاق الكاميرا وفتحها مع كاتم الصوت على صرخة الدجاجة (باق بقبقبق) رشق الأحمر القاني الشاشة وسال في الشارع وترددت في الأسماع (ذبح في الشوارع ذبح في الشوارع ذبح في الشوارع كيف حال الأولاد؟!!).

لا بأس أن تعود المجيدة ماجدة

خمسة خطوط ودائرة في الوسط وصوت (طع). صورة مع نغمة أخذتها على قفاي .. في المرة الثانية أحضرتُ قرداً معي قابضته بسيارة سكراب من عامل هندي. نطّ القردُ على النخلة وقذفنا بالتمر. صفّقوا لي ورفعوا أصابع الإبهام وقالوا (مية مية).. نخلةُ جدي سبيلٌ غيرُ مقيدٍ في وقف.. سُقُوطي من منتصف النخلة وأخْذِي الصفعةَ على قفاي. وأكلْنا التمرَ الذي رماه القرد آخرُ شريطٍ مسجلٍ للنخلة بُثَ في ذاكرتي وأنا أدفعُ آلةَ المشروبات الغازية المقامة على أنقاضها.

هيكلها الممثّل به مُلقى في مَزْبَلة الحارة بعدما ركب الأطفالُ سعفَها أحصنةً وقضى المراهقون لياليَ سمرٍ ملتفين حول لهيب ليفها. صاروا يدفعون ليشربوا. يُلقمون فمَ آلةِ المشروبات العُملة. تزدردُها بشراهة وتقذفهم بفضلاتها علباً مثلجةً. وقد كانوا يأكلون دون مقابل. يأكلون التمرَ حتى التخمة بالمجان.

زحزحتُ آلة المشروبات للأمام فظهر جذعُها المتفحمُ ساووا به الأرض حين أعجزهم وأحرقوه.. أتردّد عليها يومياً أشذّبها وأسوسها.

أبـــثُّ فيها الحياة: قامتُ بمحاذاة مكنة المشــروبات. توقف نموُّها عند المترين. وكانت قامتها تصل إلى عشرات الأمتار. أصبحنا لا نحتاج إلى حبالٍ وســلالم خشبٍ ولا إلى قردٍ نشـــتريه: عِذَاقها تتدلى وتصل إلى أيدينا. نخرف تمرها من الخلف. جرم الثلاجة يحول بيننا من الأمام. قلتُ وأنا أكوم في فمي ثلاث تمرات خلفن في يدي نَوىً ثلاثاً: عندي أمنيّتان: الأولـــى أن ندفع المكنة بعيداً عن النخلة. والأخرى أنْ ترجع النخلة إلى طولهـــا القديم. قالوا: أن ترجـــع إلى طولها القديم مســـتحيلٌ: عتيق النخـــل إذا اجتثَّ وقام: يتوقف عند طول معيّن لا يتعدّاه. أما دفعُ الآلةِ بعيداً عن النخلة فهذا المســـتحيل الثانـــي: قضينا معها زمناً تعوّدنا فيه على المكان. وحفظ الســـكانُ فيه الموقـــع. مضغتُ التمر وقلت: (نصف البلاء ولا البلاء كله).

مَنْطِقُ الط(البات)ير

هنـــاك مَـنْ يحـوم فـي الظـلام الـذي يتمـاس مـع مـحيط الضـوء، وهناك مـــن يحـوم داخـــل الضـوء، وهنـــاك مـن يحتـــرق بالضـــوء، لا أتكـلمُ عن فراشـات العـطَّـار، ربما يَكُـنَّ رمـزًا لـذلـك. بل أتكـلَّمُ عن الـرجـال الثلاثة. وعـن الرومانسـيـة السـلبية والرومانسية الإيجابية والرومانسية المتطرفة التي تقســو على النفس في سـبيل الآخر. نُعيبُ المقدماتِ الإنشائيةَ وهذه إحداهـــا: أرجـوكـن اعـذرنـني!! لأنَّ مـوضـوعـــاتٍ مـعينـةً لا تـقبل إلاَّ تلك الصيغ الإنشائية الجاهزة نَدخُلُ من خلالها إلى الأفكار مُرغمِينَ لا مفتولي العضلات. ربما تكون الموضوعات التي تَفرِضُ بداياتٍ إنشـــائيةً هـي نفســـها موضـوعـاتٌ تقليدية. اخْترن فراشـةً أعـني رَجُلاً واحـدًا من الرجـــال -المذكـــورة قِصَّتُهم مع المرأة فيما يلي- يَكـــونُ أكثرَ مقبوليةً عنـــد كلٍّ واحـدةٍ مِنكن. وإجابتكـن لا تكـونُ مـقبـولةً لـدي إلاَّ إذا توافقـتْ مع الإجابة النموذجية المدونة عندي!!

حِكـايتهـــم معهـــا -وأُنبِّهُ للمـــرة الثانية لا تخلـطْن بـــين الرجال في الحكايـة وفراشـــات النيســـابوري الثــلاث؛ تلـــك مـوضـوعهـــن أخرويّ،

وموضوعنا دنيوي، هُنَّ فقط ،كما ذكرتُ، رمزٌ لا أكثر-.

يَنظُرُ إليها بفمٍ مَخيط.ولسان عاجز عن تمزيق تلك الخيوط؛ في خياله شَبَكتْ يداه يدَها يستنشقان معًا بأنفين ملتصقين وردةً واحدةً حمراء يقطفها من العالم الواقعي يملؤها بالعطر الاصطناعي، وتَصِلُ به الأهواءُ إلى الضمّ والتقبيل. فيُعيدُ وَخزُ شمسٍ حارقة وردةً تَقبِضُ عليها يدان لا ثالثة بينهما، وأنفًا واحدًا مائلاً يلتصق بوجهه. وطار مَن بالعناق، وانفكَّ التقبيلُ عن فَراغ.

يَخافُ لكمةً تزيد ميلان أنفه، وهَبْدةً تُغوِّصُ عينَهُ، ويدًا تَلُفُّ رقبتَهُ، تزايدتْ خيوطُ فمه فخاطتْ عينيه فرأى الظلام، وخاطتْ فتحتي أنفه فتساوت الورود الاصطناعية بالطبيعية، وخاطتْ يديه على جسده فاكتفى بضمّ نفسِه، وخاطتْ قدميه في مكان وقوفه فتبدّلت الفصولُ وغطَّت الشمسَ الحارقةَ غيمةٌ في الصيف، وشجرةٌ في الربيع، واصفرارُ عاصفةٍ في الخريف.

حام ثم حام، ومَنْظَرُ اللكمات والبصقات والبوكسات والضربات والهدَّات. وكُلُّ ما ينتهي بالألف والتاء يجعله لايزال يحوم في مكانه.

كُلُّ خيالات الفراشة الأولى جَسَّدَها الرجلُ الثاني واقعًا حقيقيًّا معها بلا دموع وبلا آهات وأنات وحسرات، وآآت. غطاها بالهدايا الرمزية والتذكارية وباقات الورود، وكلمات الغزل الجاهزة عبر رسائل الجوال النصية والوسائط وعلب الشوكولاتة والمشروبات الساخنة والباردة في المنتزهات والحدائق الحكومية.

حام ثم حام وحدوده المالية تضيق، والغلاء العالمي يكسر يديه،

وأصدقاؤه يَضيِّقون به سَــلفًا وتدينًا وشــحنًا لشريحة الجوال وتأجيرًا للســيارات ودعواتٍ مَجانيــةً للحدائق والمتنزهــات الخاصة، وكوبونات مدفوعة الثمن للمطاعم الرديئة والمحال الرخيصة. يعلم أنَّ مشاعِرَها تجاهَــهُ عاديةٌ؛ لكنَّهُ وَجَدَ ســعادتَها كافية ليخســر ماله ويتســلَّف ويَضرِبُ رأسَــهُ بالجدار. -

يَخساف أنْ يَتطــوَّرَ الأمرُ إلى مَحال الخمســةِ نجــوم، ومتاجر الألماس، والمطاعم المعلَّقة، وكُلُّ صيغ مُنتهى الجموع تجعله لايزال يحوم.

الطعامُ يَبردُ ويُرفَعُ دون أن تمسَّــه شفتاه -نحن نتكلم عن الفراشة الثالثة- يُعذِّبُ نفسَــه بالوقوف بالحرِّ الخانق أو البرد القارس لو إغفاءةٌ سرقتْهُ؛ لأنَّهُ خانها وأراحَ عقلَه من التفكير فيها. عيناه سحَّاوان ليس بالليل كعادة العشــاق بل النهار أيضًا، وهذا تطوُّرٌ طبيعيٌّ للعشــق. وفيه بقية الصفات المكرَّرة التي تأتي في وصف العشاق: اللون الأصفر والأزرق، والهُــزال، والعظم المكســوّ بالجلد، وغيرها مــن تلك الصفات الدالة على قلَّةِ الأكلِ والنومِ والزوغانِ وهَمِّ التفكيرِ. تصريحُ المواطنةِ الجديدُ فَتَحَ له أبواب الدوائر الحكومية، ومؤسســات الدولة؛ لكنه لم يُفِــدهُ في النفاذ إلى بيوت العائــلات، ومصاهرتها، قبل المواطنة عاش ضيفًــا مكرمًا في تلك البيوت، وبعدها سُــلِبتْ عنه مكرمةُ الضيف وعجز عن أن يكون مُضيفًا لإحداها.

يَخافُ المُعايرةَ بجواز ســفره القريب العهد بالتجنس؛ فحام ثم حام وعينُــهُ -لو اقترب- على المَرْمَطــة والبَهْذَلة والجَرْجَرة، وكُلُّ وزن فَعْلَلة يجعله لايزال يحوم في مكانه.

بعد سماع الحكاية فكِّرنَ.. تشاورن.. خُذنَ وقتًا. ثم لِتَضع كُلُّ واحدةٍ منكن نفسَها مكان المرأة وتختار الرَجُلَ الأنسبَ لها. رجلاً واحدًا فقط!! ولا تقلن ما للمعلمة شطحتْ ونطحتْ وصاعتْ وضاعتْ ولم تجد إلاّ هذا الموضوع؟!

تغامزت الطالباتُ مرتابات في المعلمة؛ ففي الحكاية ضمٌّ وتقبيلٌ، أمورٌ حيَّرتْ خيالهن في تصوُّرِ بطلة الحكاية في صورة المعلمة، ولعبتْ في عقولهن مقولةُ مَن لا يَعرِفُكَ يَجهَلُكَ. فقامتْ تلميذة بادئةً بسؤالٍ تمهيديٍّ يَسبق السؤالَ المسلول من لسانها الطويل لتقطع به الشكَّ باليقين: أهؤلاءِ الرجال الثلاثة أزواج تلك المرأة؟

أجابت المعلمة: يا ذكاء مَنْ أنجباكِ، وأين سقطت السواطير والسكاكين والأكياس السود من القصة لو كانَ الرجلُ الثاني زوجًا لمرأةٍ؟!

ثم جاء سؤالها الذي مالتْ آذانُ زميلاتها إليه: بطلة الحكاية مَن تكون؟

أجابت المعلمة: أنتِ، وكلُّ طالبةٍ تسألني مَن تكون تلك المرأة سأقول لها أنتِ.

قالتْ طالبةٌ لزميلتها: ألم تُلاحظي المعلمةَ تَخلط، مرةً تقول فراشات العطَّار، ومرةً تقول فراشات النيسابوري. لا تُركِّزُ في فراشاتِ مَنْ بالضبط تُريد؟!

ردَّتْ زميلتها: فراشات العطَّار.. فراشات النيسابوري.. فراشات اللهو الخفي، موضوعنا الرجال، ركزي فيهم، طيِّري الفراشات من

دماغك. إنَّهُنَّ رموزٌ فقط. كم مرة المعلمة كرَّرتْ ذلك؟!

همستْ طالبةٌ في أذن زميلتها: الثاني حلوٌ.

ردَّتْ زميلتها: اللزقة، لا، أنا أكره اللزقات.

استرقت السمعَ أخرى وقالت: ضَمٌّ وتَقبيلٌ، لا...لا.... عيب أنتِ وإياها!

ردَّتْ عليها الأولى: عيب... ضم وتقبيل... عيب، يظهر أنَّ عهدَكِ بالبث الفضائي لا يتجاوز روتانا زمان وفيلم (المَخَدَّة الخالية).

صحَّحت الثانية: الوِسادة الخالية.

الأولى: مخدة.. وسادة المهم أنها خاوية أو خالية لا أدري، لست مِن هواة الأبيض والأسود.

قالت طالبة لزميلتها: سأختار ذا اللون الأصفر والأزرق؛ لأني أشجع نادي النصر.

- ردتْ زميلتُها: رَجُلٌ لا يأكل ولا يشرب يَصلُحُ لي أنا، لأني لا أُحِبُّ دخولَ المطبخ.

ردتْ الأولى: ولونه الأصفر والأزرق ماذا ستفعلين بهما وأنت تشجعين الهلال؟!

قالت طالبة لمجموعة من الطالبات: أنا.. قبل أنْ أختار لا بُدَّ أنْ أعرِفَ هذا الدرسُ مِنْ أيِّ مادةٍ في المنهج، وما معنى إجابة نموذجية؟! نحن نختار لنا أو لها؟!

ردت إحداهن: أما الدرسُ ففي مادة كيف تصبحين خَطَّابةً في

سبعة أيّام، أمّا لِمَنْ نختار فلا يهم لنا أو للمعلمة أو حتى لبطلة الحكاية؛ لأنَّ الزواجَ في النهاية قسمةٌ ونصيبٌ وليس إجابةً نموذجيةً.

بعد أن توزَّعت اختيارات الطالبات على الرجال الثلاثة، قالت المعلمة: لم أتوقع أن طالباتٍ سينعتقن في نهاية العام من التعليم التربوي إلى التعليم العالي، وفي زمن الفضاء والاتصال الإعجازي تتوقف اختياراتهن عند الرجال الثلاثة، أين الرجل المثلث؟! لماذا لَمْ تختارْ ولا واحدة منكن الرجل المثلث، الإجابة النموذجية عندي هي أنْ تخترن الرجل المثلث الذي يتمتع باجتماع الفعاليةِ الثلاثية القوّةِ والمال والسلطة.

تبادلت الطالباتُ نظراتِ الاستخفافِ بتلك المعلمة التي تحكي وتنسى ما تحكي، فقامتْ طالبةٌ، وقالت: يا أستاذة كيف نختار رَجُلاً من القصة غير موجود فيها أصلاً، أنتِ لم تأتي على ذِكْرٍ لرجُلٍ مُثَلَّثٍ ولا مُرَبَّعٍ ولا متوازي الأضلاعِ.

قالت المعلمة: لم يأتِ ذِكْرُ الرجلِ المثلثِ في الحكاية!!! هل تعرفن أنَّ كُلَّ رجلٍ من الرجال الثلاثة الذين اخترتنهم قد جاء ذِكْرُه في القصة مرَّةً واحدة فقط، والرجل الرابع الذي تجاهلتنَّهُ جاء ذِكْرُهُ في القصة ثلاثَ مراتٍ، ومع ذلك لم تلحظنه، بل تدعين أنه لم يرد في القصة، وأنا لم أذْكُرْهُ، أَعِدْنَ القصةَ في مُخيلاتِكُنَّ ستجدْنَهُ يُطِلُّ عليكن في حكايةِ كُلِّ فراشةٍ IIII رَجُلٍ.

نِدَاءٌ

- مَنْظَرٌ فِي إِضَاءَةٍ خَافِتَةٍ -

- «مَامَا»

تَسَمَّرَتْ فِي مَكَانِهَا فِي الطُّرْقَةِ المُؤَدِّيَةِ إِلَى فِنَاءِ الْبَيْتِ، اسْتَدَارَتْ بِبُطْءٍ ونَظَرَتْ إِلَى الْبِرْوَازِ المُعَلَّقِ فِي الصَّالَةِ فِي مُوَاجَهَةِ الطُّرْقَةِ، وَاسْتَعَاذَتْ مِنَ الشَّيْطَانِ.....

- مَنْظَرٌ فِي إِضَاءَةٍ سَاطِعَةٍ -

رَكِبَتِ السَّيَّارَةَ الْوَاقِفَةَ فِي فِنَاءِ المَنْزِلِ، أَدَارَ السَّائِقُ الَّذِي يَنْتَظِرُهَا دَاخِلَ السَّيَّارَةِ المِفْتَاحَ، وَخَرَجَتِ السَّيَّارَةُ مِنَ الْبَابِ الحَدِيدِيِّ المُخَصَّصِ لَهَا. المَسَافَةُ مِنَ الْبَيْتِ إِلَى الْعَمَلِ فِي السَّاعَةِ السَّابِعَةِ صَبَاحًا تَبْدُو مُمِلَّةً وَطَوِيلَةً، مُزْدَحِمَةً بالمُوَظَّفِينَ والطَّلَبَةِ، هَذَا الْيَوْمُ لَمْ تَرَ طَوَابِيرَ السَّيَّارَاتِ وَلَمْ تَسْمَعْ ضَوْضَاءَ الصَّبَاحِ شَارِدَةً فِي الصَّوْتِ الَّذِي سَمِعَتْهُ. نَشِطَ الحَنِينُ الخَامِلُ فِي أَعْمَاقِهَا وَبَدَأَ يَتَحَرَّكُ وَيَنْتَشِرُ فِي جَمِيعِ خَلايَا جِسْمِهَا. سَنَةٌ كَامِلَةٌ لَمْ تَسْمَعْ فِيهَا كَلِمَةَ (مَامَا).

سَاعَاتُ الدَّوَامِ الأُوْلَى دَائِمًا مَضْغُوطَةٌ بالعَمَلِ؛ أَخَذَهَا الانْشِغَالُ حَتَّى وَقْتِ الضُّحَى وَأَصْبَحَ النِّدَاءُ كَالحُلُمِ المَنْسِيِّ. فِي السَّاعَاتِ

الأَخِيــرَةِ بَــدَأَتْ زَميلاتُ العَمَلِ يَشْــرَحْنَ لَهَا عَمَلَ الأَطْبَاقِ السَّــرِيعَةِ، وَأَصْنَافَ الأَطْعِمَةِ الجَاهِزَةِ الَّتِي تُغْنِيهَا عَنِ الطَّبِيخِ واسْتِهْلاكِ الْوَقْتِ الطَّوِيلِ فِي إِعْــدَادِهِ لِلضُّيُــوفِ. مَرَّتْ بالسُّــوقِ الْمَرْكَزِيِّ وَمَلأَتْ سَــلَّةَ الْمُشْــتَرَيَاتِ بالأَطْعِمَةِ الجَاهِزَةِ الْمَنْصُوحِ بِهَا مِنْ لَدُنْ زَمِيلاتِهَا. مُنْذُ سَفَرِ زَوْجِهَا وَالأَقَارِبُ يَدْعُونَ أَنْفُسَهُمْ يَوْمًا فِي الأُسْبُوعِ لِلعَشَاءِ وَالسَّهَرِ.

اتِّصَــالُ زَوْجِهَــا الْغَائِبِ مُنْذُ أَكْثَرَ مِــنْ خَمْسِ سَــنَوَاتٍ يَأْتِيهَا يَوْمِيًّا فِي السَّــاعَةِ الثَّانِيَةَ عَشْــرَةَ لَيْلاً مِنْ أَقْصَــى الأَرْضِ. حَدَّثَتْه عَنِ الْيَوْمِ الصَّاخِبِ بالضُّيُوفِ: النِّسَــاءِ الثَّرْثَارَاتِ الْمُتَذَمِّــرَاتِ. وَالأَطْفَالِ الْعَبَثِيِّينَ وَكَيْفَ مَــلأُوا الأَرْضَ وَالفَرْشَ النَّظِيــفَ بِكَرِيمَةِ الْكَعْكِ وَطَيَّشُــوا رَذَاذَ الْمِيَاهِ الْغَازِيَّةِ عَلَى الأَثَاثِ وَنَتَّفُوا أَوْرَاقَ الأَشْــجَارِ الاصْطِنَاعِيِّ فِي أَنْحَاءِ الْبَيْتِ. لَكِنَّهَا لَمْ تَأْتِ لَهُ عَلَى ذِكْرِ النِّدَاءِ الْغَامِضِ صَبَاحَ هَذَا الْيَوْمِ.

قَضَتْ أَكْثَرَ مِنْ سَاعَةٍ بَعْدَ الْمُكَالَمَةِ تَتَقَلَّبُ فِي الْفِرَاشِ تَغْتَصِرُ النَّوْمَ، وَحِينَ غَابَتْ شَــيْئًا فِيهِ سَــمِعَتْ ارْتِطَامًا صَاخِبًا وَصَوْتًا يُشْبِهُ تَحَطُّمَ زُجَاجٍ.....

- مَنْظَرٌ فِي إِضَاءَةٍ خَافِتَةٍ -

أَسْرَعَتْ هَابِطَةً إِلَى الدَّوْرِ الأَرْضِيِّ دَارَتْ فِي الصَّالَةِ بَاحِثَةً عَنْ مَصْدَرِ الصَّــوْتِ فَــإِذَا بِزُجَاجٍ يَمْلأُ أَرْضَ الصَّالَــةِ. رَفَعَتْ رَأْسَــهَا وَرَأَتِ الْبِرْوَازَ قَدْ سَــقَطَ وانْهَشَمَ. قَعَدَتْ وَسَــحَبَتْ الصُّورَةَ مِنْ بَيْنِ نِثَارِ الزُّجَاجِ. مَرَّرَتْ أَصَابِعَهَا تَتَحَسَّــسُ مَلامِحَهُ. وَقَبْلَ أَنْ تَدْفَعَهَا حُرْقَةُ اللَّوْعَةِ إِلَى حَكِّ الصُّورَةِ بِأَظَافِرِهَا وَقَفَتْ.

فِــي صُعُودِهَا الــدَّرَجَ الْمُؤَدِّيَ إِلَــى غُرْفَتِهَا فِي الطَّابِقِ الأَوَّلِ مُمْسِــكَةً

بِصُـوْرَةِ طِفْلِهَا سَـمِعَتْ وَصْوَصَـةَ كَتَاكِيْـتَ كُنَّ يَصْعَـدْنَ خَلْفَهَا الْتَفَتَـتْ إِلَيْهِـنَّ. تَذَكَّرتْ أَنَّهَا قَـدْ تَخَلَّصَتْ مِنْهُنَّ بَعْـدَ وَفَاةِ طِفْلِهَا. كَشَّتِ الْكَتَاكِيْتَ بِأَسَفٍ وَاعْتِذَارٍ دَاخِلِيَّيْنِ تَطْلُبُهُمَا مِنْ صُوْرَةِ طِفْلِهَا. فَجْأَةً اخْتَفَيْنَ.....

- مَنْظَرٌ فِي إِضَاءَةٍ سَاطِعَةٍ -

دَخَلَـتْ غُرْفَتَهَا وَضَعَتْ الصُّوْرَةَ عَلَى الطَّاوِلَـةِ. وَنَظَرَتْ إِلَى الْهَاتِفِ تَمَنَّتْ لَوْ أَنَّ زَوْجَهَا يَطْلُبُهَا مَرَّةً أُخْرَى وَيَتَحَدَّثُ حَتَّى الصَّبَاحِ.

اسْـتَيقَظَتْ فِي الْعَاشِـرَةِ صَبَاحًا مِنْ حُسْـنِ الْحَظِّ أَنَّهُ يَوْمُ الإِجَازَةِ الأُسْـبُوعِيُّ. لَفَتَـتْ نَظَرَهَا الصُّوْرَةُ عَلَـى الْمِنْضَدَةِ. بَعْدَ تَـرَدُّدٍ رَفَعَتْهَا وَتَأَمَّلَتْ مَلامِحَ؛ سَـنَةً كَامِلَةً كُلَّمَا حَضَرَتْ فِي مُخَيِّلَتِهَا شَوَّشَـتْهَا لِئَلا يَنْفَجِرَ الشَّـوْقُ الْمَضْغُوطُ وَيُفْسِـدُ عِيْشَـتَهَا. هَاهِيَ الصُّوْرَةُ الآنَ تُجْبِـرُ نَظَرَاتِهَا عَلَى الْغَوْصِ فِي مَلامِحِهِ وَإِلْهَابِ مَشَـاعِرِهَا الْمَكْبُوتَةِ. وَضَعَتِ الصُّوْرَةَ عَلَى السَّرِيرِ وَدَخَلَتِ الْحَمَّامَ الْمُلْحَقَ بِغُرْفَةِ النَّوْمِ.....

- مَنْظَرٌ فِي إِضَاءَةٍ خَافِتَةٍ -

وَهِيَ مُنْتَشِـيَةٌ بِتَدَافُعِ مَاءِ الدُّشِّ يُزِيلُ رَغْـاوَى الصَّابُونِ وَالإِرْهَاقَ عَنْ خَارِجِ جَسَدِهَا وَدَاخِلِهِ سَمِعَتْ نِدَاءً وَاهِنًا يَتَأَلَّمُ «مَامَا»؛ الْهَلَعُ جَعَلَهَا تَخْرُجُ مِـنَ الْحَمَّامِ مُبَلَّلَةً وَعَارِيَةً. أَقْبَلَتْ عَلَـى طِفْلِهَا الْمُضْطَجِعِ عَلَى سَـرِيرِهَا. قَعَدَتْ مُجَاوِرَةً لَهُ فِي السَّرِيرِ. حَدَّثَهَا عَنِ السَّاعَاتِ الطَّوِيلَةِ الَّتِـي قَضَاهَا فِي النَّـوْمِ الإِجْبَارِيِّ الَّـذِي حَرَمَهُ مِنَ اللَّعِبِ وَمُشَـاهَدَةِ الرُّسُـومِ الْمُتَحَرِّكَةِ وَمُنَاكَفَةِ الأَطْفَالِ الَّذِينَ يُفَضِّلُونَ مُغَامَرَاتِ الرَّجُلِ الْعَنْكَبُـوتِ عَلَى الرَّجُلِ الْخَارِقِ الَّذِي يُطِيحُ بالأَشْـرَارِ عَـنْ تَلَفِ الْحَلْوَى

الشَّرْقِيَّةِ -الَّتِي يَكْرَهُ فِيهَا السُّكَّرَ السَّائِلَ الَّذِي يُلاصِقُ بَيْنَ أَصَابِعِهِ- قَبْلَ أَكْلِهَا بِسَبَبِ النَّوْمِ الطَّوِيلِ، عَنِ النَّطْنَطَةِ مَعَ الْكَتَاكِيتِ الَّتِي يُحِبُّهَا أَكْثَرَ مِنَ الدَّرَّاجَةِ، عَنْ كُلِّ مَا يَسْتَمْتِعُ بِهِ الأَطْفَالُ فِي عُمْرِهِ؛ خَمْسُ سَنَوَاتٍ لَمْ يَعِشْ مِنْهَا إلاَّ الْقَلِيلَ قَضَى أَغْلَبَهَا فِي النَّوْمِ الإِجْبَارِيِّ، شَكَى لَهَا كَيْفَ أَصْبَحَ لَوْنُهُ شَاحِبًا وَعَيْنَاهُ صَفْرَاوَيْنِ وَجِسْمُهُ هَزِيلاً، بَدَأَ يُعَاتِبُهَا بِصَوْتٍ ضَعِيفٍ وَقِلَّةِ حِيلَةٍ: مَامَا لِمَاذَا كُلَّمَا أَصْحُو مِنَ النَّوْمِ تُعِيدِينَنِي إِلَيْهِ؟! لِمَاذَا يَا مَامَا؟!. ثُمَّ تَدَرَّجَ فِي الاخْتِفَاءِ حَتَّى اُخْتُزِلَ فِي صُورَةٍ وَرَقِيَّةٍ بِمَسَاحَةِ ٣٠ X ٤٠ فَوْقَ السَّرِيرِ.....

- مَنْظَرٌ فِي إِضَاءَةٍ سَاطِعَةٍ -

لأَوَّلِ مَرَّةٍ تَكْرَهُ يَوْمَ إِجَازَتِهَا وَتَتَمَنَّى لَوْ أَنَّهُ يَوْمُ دَوَامٍ وَظِيفِيٍّ. مِنْ عَادَتِهَا تَمْضِيَةُ يَوْمِ إِجَازَتِهَا فِي اسْتِرْخَاءٍ تَامٍّ، لا تَقُومُ بِأَيِّ عَمَلٍ؛ تُفْطِرُ وَتَقْرَأُ الصُّحُفَ وَالْمَجَلاتِ وَتُشَاهِدُ بَرَامِجَ التِّلِفِزْيُونِ الْخَفِيفَةَ؛ تَتَنَاوَلُ فَطُورَهَا فِي الطَّابِقِ الأَوَّلِ حَيْثُ خُصِّصَ مَكَانٌ مُجَهَّزٌ بِأَدَوَاتٍ كَهْرَبَائِيَّةٍ لإِعْدَادِ الْوَجَبَاتِ الْخَفِيفَةِ. اخْتَلَفَ الْيَوْمُ هَرَبَتْ مِنْ غُرْفَتِهَا إِلَى الطَّابِقِ الأَرْضِيِّ، اسْتَغْرَبَتِ الْخَادِمُ نُزُولَهَا فِي السَّاعَةِ الْعَاشِرَةِ وَالنِّصْفِ صَبَاحًا فِي مَوْعِدِ تَنْظِيفِ الْبَيْتِ الأُسْبُوعِيِّ بَعْدَ خَرَابِ لَيْلَةِ زِيَارَةِ الْعَائِلاتِ وَأَطْفَالِهِمُ الْمُخَرِّبِينَ. تَرَكَتِ الْمِكْنَسَةَ الْكَهْرَبَائِيَّةَ مِنْ يَدِهَا وَقَالَتْ: هَلْ أُحْضِرُ لَكِ الْفَطُورَ؟ وَهَذَا لَيْسَ مِنَ اخْتِصَاصِهَا؛ لَكِنَّهَا عَرَضَتْ ذَلِكَ شَكًّا مِنْهَا فِي تَغَيُّرِ نِظَامٍ مَا لِرَبَّةِ الْمَنْزِلِ أَوْ طَارِئٍ لأَمْرٍ غَيْرِ عَادِيٍّ. رَدَّتْ عَلَيْهَا: اعْمَلِي قَهْوَةً بِالْحَلِيبِ. حَتَّى عَمَلِ الْمَشْرُوبَاتِ لَيْسَ مِنَ اخْتِصَاصَاتِ الْخَادِمِ. حِينَ عَادَتِ الْخَادِمُ حَامِلَةً كُوبَ الْقَهْوَةِ رَأَتْهَا قَدْ

أَخَذَتْ قِطْعَةَ قِمَاشٍ مَبْلُولَةً وَبَدَأَتْ تَمْسَحُ الأَثَاثَ. لَمْ تَعْتَرِضِ الخَادِمُ وَضَعَتِ الكَوْبَ وَأَكْمَلَتْ كَنْسَ الأَرْضِيَّةِ. بَعْدَ التَّنْظِيفِ فَتَحَتْ أَبْوَابَ البَيْتِ الدَّاخِلِيَّةَ وَنَوَافِذَهُ. لَمْ تَعْتَرِضِ الخَادِمُ أَيْضًا وَهِيَ تَرَى اصْفِرَارَ الجَوِّ يَهْدُرُ مَجْهُودَ التَّنْظِيفِ.

أَمْضَتْ نَهَارَ اليَوْمِ فِي الدَّوْرِ الأَرْضِيِّ قَرَأَتِ الصُّحُفَ وَتَنَاوَلَتْ غَدَاءَهَا. فَتَحَتِ التِّلِفِزْيُونَ عَلَى مُسْتَوًى عَالٍ مِنَ الصَّوْتِ وَفِي مُرُورِهَا بِجِهَازِ التَّحَكُّمِ عَلَى القَنَوَاتِ تَتَهَرَّبُ مِنْ قَنَوَاتِ الأَطْفَالِ؛ كَنَّةُ ذَنْبٍ تَلْسَعُهَا.

أَصَرَّتْ عَلَى تَمْرِيرِ لَيْلِ اليَوْمِ كَذَلِكَ فِي الدَّوْرِ الأَرْضِيِّ. فِي التَّاسِعَةِ لَيْلاً دَخَلَتِ المَكْتَبَ الإِضَافِيَّ فِي الدَّوْرِ الأَرْضِيِّ المُجَهَّزَ بِالحَاسِبِ الآلِيِّ وَأَرْسَلَتْ لأُخْتِهَا مِنَ الهَاتِفِ المُتَنَقِّلِ رِسَالَةً قَصِيرَةً تَطْلُبُ مِنْهَا الدُّخُولَ إِلَى رُكْنِ التَّحَادُثِ بِالمُرَاسَلَةِ عَلَى شَبَكَةِ المَعْلُومَاتِ لِتَتَسَامَرَا؛ وَهِيَ الَّتِي قَبْلَ ذَلِكَ تَتَضَايَقُ مِنْ شَكَاوَى أُخْتِهَا من حَمَاتِهَا وأَخَوَاتِ زَوْجِهَا. وخُصُومَاتِهِنَّ المُتَجَدِّدَةِ الَّتِي لا تَنْقَضِي. اليَوْمَ فَقَطْ شَعَرَتْ بِأَنَّهَا مُحْتَاجَةٌ إِلَى سَمَاعِ صَوْتِ كَائِنٍ حَيٍّ؛ الثَّرْثَرَةُ مُفِيدَةٌ أَحْيَانًا فِي تَبْدِيدِ الوَقْتِ وَإِنْ عَلَى حِسَابِ انْتِهَاكِ سِيَرِ الآخَرِينَ. فِي حَدِيثِهَا مَعَ أُخْتِهَا أَخَذَتْ دَوْرَ المُشَجِّعِ لِجَمِيعِ الانْتِقَادَاتِ الصَّادِرَةِ مِنْ أُخْتِهَا لِعَائِلَةِ زَوْجِهَا. رَأَتْ فِي تَحْرِيضِهَا مَزِيدًا مِنْ سَرْدِ الوَقَائِعِ وَالقَصَصِ. وَفِي السَّابِقِ كَانَتْ تَتَعَفَّفُ عَنِ التَّعْلِيقِ......

- مَنْظَرٌ فِي إِضَاءَةٍ خَافِتَةٍ -

قَامَتْ فَزِعَةً عَلَى صَوْتِ زَاعِقٍ يَسْتَنْجِدُ «مَامَا... مَامَا» قَادِمًا مِنَ الطَّابِقِ الأَوَّلِ؛ تَرْكُضُ هَلِعَةً مِنَ المَكْتَبِ بِاتِّجَاهِ الدَّرَجِ. تَوَقَّفَتْ أَمَامَ الدَّرَجِ

وَالصَّيْحَاتُ الْمُسْتَغِيثَةُ مَازَالَتْ تَتَوَالَى. شَابٌّ طَوِيلٌ فِي سِنِّ الْخَامِسَةِ وَالْعِشْرِينَ يَلْبَسُ الْبُرْنُسَ حَاسِرًا شَعْرَهُ يَقِفُ فِي مُنْتَصَفِ الدَّرَجِ. تَبَادَلا النَّظَرَاتِ اخْتَلَطَتْ مَشَاعِرُهَا عِنْدَ مَرآهُ مَا بَيْنَ الرُّعْبِ الشَّدِيدِ وَالْحَنَانِ الدَّافِقِ: الشُّعُورُ الْمُلْتَبِسُ بَيْنَ الْخَوْفِ الْجَلِيِّ وَالْحُبِّ الْخَفِيِّ جَمَّدَهَا فِي مَكَانِهَا. عَاوَدَ بُكَاءٌ جُلاجِلٌ فَأَسْرَعَتْ فِي الصُّعُودِ مُتَعَدِّيَةً الشَّابَّ الْوَاقِفَ وَسَطَ الدَّرَجِ. دَخَلَتْ غُرْفَةَ طِفْلِهَا: الأَنْوَارُ مُطْفَأَةٌ مُكْتَفِيَةً الْغُرْفَةُ بالإِنَارَةِ الْعَابِرَةِ مِنْ سُورِ الْمَنْزِلِ وَالْحَدِيقَةِ. يَجْلِسُ مُنكَمِشًا عَلَى الْكُرْسِيِّ وَيَبْكِي. قَعَدَتْ عِنْدَ رُكْبَتَيْهِ مَسَحَتْ دُمُوعَهُ. وَسَأَلَتْهُ عَنْ سَبَبِ بُكَائِهِ وَطَلَبِ الْغَوْثِ. قَالَ لَهَا: « شَابٌّ كَانَ يَقِفُ هُنَا أَخْبَرَنِي بِأَنِّي سَأَمُوتُ. وَرَدَدْتُ عَلَيْهِ: أَنِّي لَنْ أَمُوتَ. لَكِنَّهُ أَصَرَّ وَأَكَّدَ أَنِّي سَأَمُوتُ. وَصَرَخْتُ فِيهِ وَقُلْتُ: لا. لَنْ أَمُوتَ. وَأَخَذَ يُرَدِّدُ: بَلْ سَتَمُوتُ بِدَلِيلِ أَنَّكَ أَنْتَ أَنَا لَوْ أَنَّكَ سَتَعِيشُ عِشْرِينَ سَنَةً؛ لَكِنْ أُبْلِغْتُ أَنْ لا حَاجَةَ إِلَيَّ لأَنَّ الطِّفْلَ الَّذِي سَيَصِيرُنِي سَيَمُوتُ».....

- مَنْظَرٌ فِي إِضَاءَةٍ سَاطِعَةٍ -

دَخَلَتِ الْخَادِمُ وَأَضَاءَتِ الأَنْوَارَ فَنَهَضَتْ مِنْ جَلْسَتِهَا. أَخْبَرَتْهَا الْخَادِمُ أَنَّ أُخْتَهَا اتَّصَلَتْ عَبْرَ الْهَاتِفِ قَلِقَةً عَلَيْهَا لأَنَّ الْحَدِيثَ انْقَطَعَ فَجْأَةً بَيْنَهُمَا. قَالَتْ وَهِيَ خَارِجَةٌ: سَأَتَّصِلُ بِهَا حَالاً. أَغْلَقَتِ الْخَادِمُ النَّافِذَةَ الْكَبِيرَةَ وَأَطْفَأَتِ الأَنْوَارَ وخَرَجَتْ خَلْفَهَا.

طَمْأَنَتْ أُخْتَهَا وَقَدَّمَتْ لَهَا الاعْتِذَارَ وَادَّعَتْ تَذَكُّرَ مَاءٍ يَغْلِي عَلَى النَّارِ. دَخَلَتْ سَرِيرَهَا وَكَأَنَّ قَضَاءَ سَاعَاتِ الْيَوْمِ فِي الدَّوْرِ الأَرْضِيِّ لَمْ يَأْتِ بِفَائِدَةٍ. مَنَّتْ نَفْسَهَا بِصَبَاحٍ تَذْهَبُ فِيهِ إِلَى الْعَمَلِ؛ يَكْنُسُ

الانْهِمَاكُ فِيْهِ والإِرْهَاقُ ذِكْرَيَاتٍ وَمشَاهِدَ أَلِيمَةً.

أَقْلَقَ نَوْمَها عَطَشٌ حَادٌّ، دِفْءُ مَاءِ الْقِنِّينَةِ عَلَى الْمِنْضَدَةِ لَمْ يَرْوِ عَطَشَهَا، تَخَلَّتْ عَنْ سَرِيرِهَا وَنَزَلَتْ إِلَى الْمَطْبَخِ لِتَمْلأَ الْقِنِّينَةَ بالْمَاءِ الْبَارِدِ. الطَّبَقُ الْغَارِقُ بِأَنْوَاعِ الْحَلاوَى الشَّرْقِيَّةِ أَوَّلُ شَيْءٍ وَقَعَتْ عَلَيْهِ عَيْنَاهَا عِنْدَ فَتْحِ الثَّلاجَةِ تَأَمَّلَتْهُ تَذَكَّرَتِ انْتِظَارَ طِفْلِهَا لِعَمِّهِ؛ نِهَايَةَ كُلِّ أُسْبُوعٍ يَمُرُّ وَيَضَعُ طَبَقَ الْحَلاوَى عِنْدَ الْبَابِ وَيَضْرِبُ الْجَرَسَ وَيَخْتَفِي، لَمْ يَقْطَعِ الْعَادَةَ كَيْ لا يَجْرَحَ مَشَاعِرَهَا. سَنَةً كَامِلَةً وَأَطْبَاقُ الْحَلاوَى تَتَرَاكَمُ فِي الثَّلاجَةِ لا أَحَدَ يَأْكُلُهَا، تَتَيَبَّسُ وَتُرْمَى، سَحَبَتْهُ ووَضَعَتْهُ عَلَى الأَرْضِ وَقَعَدَتْ كَمَا يَفْعَلُ طِفْلُهَا الَّذِي لا يَقْدِرُ لِثِقْلِهِ عَلَى الإِمْسَاكِ بِهِ طَوِيلاً؛ يَضَعُهُ عَلَى الأَرْضِ وَيَبْدَأُ الأَكْلَ. أَخَذَتْ قِطْعَةً مِنَ الْحَلْوَى وَقَبْلَ أَنْ تَضَعَهَا فِي فَمِهَا......

- مَنْظَرٌ فِي إِضَاءَةٍ خَافِتَةٍ -

شَعَرَتْ بِهَوَاءٍ شَدِيدٍ يَفْتَحُ بَابَ الْمَنْزِلِ الدَّاخِلِيَّ الْمَقْفُولَ مُسْبَقًا بالْمِفْتَاحِ وَضَعَتْ قِطْعَةَ الْحَلْوَى وَنَهَضَتْ وَاقِفَةً. تَقَدَّمَتْ لِتُغْلِقَ الْبَابَ -كَانَتِ السَّاعَةُ الثَّالِثَةَ قَبْلَ الْفَجْرِ- فَشَاهَدَتْ أَنَّ الْبَابَ الْخَارِجِيَّ الْمُطِلَّ عَلَى الشَّارِعِ أَيْضًا مَفْتُوحٌ، وَثَمَّةَ رَجُلٍ وَامْرَأَةٍ فِي الشَّارِعِ يَتَحَدَّثَانِ بِخُصُوصِ الْبَيْتِ كَأَصْحَابِهِ الْجُدَدِ وَأَنَّ مَسَاحَتَهُ تَصْلُحُ لِلَهْوِ طِفْلِهِمَا الَّذِي تَحْتَهُ يُمْسِكُ بِيَدِ أُمِّهِ؛ طِفْلٌ سَمِينٌ بَشَرَتُهُ صَافِيَةٌ وَعَيْنَاهُ بَرَّاقَتَانِ وَخَدَّاهُ مُتَوَرِّدَانِ. نَادَتْ عَلَى الْخَادِمِ وَزَوْجِهَا السَّائِقِ فِي الْحُجْرَةِ الْمُلْحَقَةِ بِالْفِنَاءِ، لا أَحَدَ يَرُدُّ. كَرَّرَتِ النِّدَاءَ. وَأَخِيرًا اتَّجَهَتْ إِلَى حُجْرَتِهِمَا وَجَدَتْهَا فَارِغَةً تَمَامًا لا أَثَرَ لِبَقَايَا بَشَرٍ قَدْ عَاشَ فِيْهَا؛ الْبَلاطُ مَلِيءٌ بِالتُّرَابِ، وَالْجُدْرَانُ مُغْبَرَّةٌ.

- مَنْظَرٌ بَيْنَ الإِضَاءَتَيْنِ الْخَافِتَةِ وَالسَّاطِعَةِ -

سَافَرَ زَوْجِي مُنْذُ خَمْسِ سَنَوَاتٍ وَتَرَكَنِي وَحِيدَةً مَعَ رَضِيعٍ فِي شَهْرِهِ الأَوَّلِ؛ الْخَادِمُ وَزَوْجُهَا السَّائِقُ لَمْ يَحْضُرَا لِلعَمَلِ فِي الْمَنْزِلِ إلاَّ حِينَ صِرْتُ بِمُفْرَدِي مُنْذُ سَنَةٍ كَامِلَةٍ. كُنْتُ مُوَظَّفَةً ومَازِلْتُ؛ دَوَامِي يَبْدَأُ فِي الثَّامِنَةِ صَبَاحًا وَيَنْتَهِي عِنْدَ الثَّانِيَةِ ظُهْرًا؛ أَخْرُجُ مِنَ الْمَنْزِلِ فِي السَّابِعَةِ صَبَاحًا قَبْلَ الْمَوْعِدِ بِسَاعَةٍ وَأَعُودُ فِي الثَّالِثَةِ ظُهْرًا بَعْدَ الْمَوْعِدِ بِسَاعَةٍ كُنْتُ أَخْشَى عَلَيْهِ الْجُلُوسَ وَحِيدًا. تَصَوَّرْتُ أَنَّ الْعَبَثَ يُهَدِّدُ حَيَاتَهُ وَيُعَرِّضُهُ لِلخَطَرِ: النَّارَ.. الأَشْيَاءَ الْحَادَّةَ.. الأَشْيَاءَ الثَّقِيلَةَ، كُلُّ مَا يُحِيطُ بالطِّفْلِ الصَّغِيرِ الْمَتْرُوكِ دُونَ حِرَاسَةٍ وَمُرَاقَبَةٍ يُصِيبُهُ بالضَّرَرِ؛ أُعْطِيهِ الْحُبُوبَ الْمُنَوِّمَةَ وَأَحْيَانًا الأَدْوِيَةَ الَّتِي فِيهَا نِسْبَةُ مُخَدِّرٍ، يَنْتَهِي مَفْعُولُ الْمُنَوِّمِ عِنْدَ قُدُومِي إِلَى الْبَيْتِ. وَفِي أَيَّامٍ قَلِيلَةٍ إِذَا عُدْتُ مُتْعَبَةً مَهْدُودَةَ الْقُوَى، لَيْسَ لِي طَاقَةُ الأَخْذِ وَالْعَطَاءِ والاعْتِنَاءِ بِهِ، أُعْطِيهِ جُرْعَةً ثَانِيَةً حَتَّى أَسْتَطِيعَ أَنْ أَرْتَاحَ دُونَ قَلَقٍ عَلَى تَرْكِهِ وَحِيدًا. يُفِيقُ مِنَ الْمُنَوِّمِ الثَّانِي بَعْدَ أَنْ يَنْعَمَ الْعَالَمُ الْخَارِجِيُّ بالْهُدُوءِ وَالسَّكِينَةِ.

بَدَأْتُ إِعْطَاءَهُ الأَدْوِيَةَ عِنْدَ بُلُوغِهِ السَّنَةَ الأُولَى إِذْ صَارَ يَتَحَرَّكُ وَيَتَنَقَّلُ خَارِجَ غُرْفَةِ نَوْمِهِ. صَحِيحٌ! فِي الإِجَازَاتِ وَالْعُطَلِ الأُسْبُوعِيَّةِ لا أُعْطِيهِ الْمُنَوِّمَ إلاَّ فِي حَالاتِ انْشِغَالِي الشَّدِيدِ. اسْتَمَرَّ فِي أَخْذِ الأَدْوِيَةِ مِنْ عُمْرِ السَّنَةِ الأُولَى حَتَّى بَلَغَ الْخَامِسَةَ؛ أَرْبَعُ سَنَوَاتٍ مُتَوَاصِلَةٍ. رَتَّبْتُ قَرَارَ إِيقَافِ الْحُبُوبِ عِنْدَ بُلُوغِهِ السَّادِسَةَ وَالْتِحَاقِهِ بالْمَدْرَسَةِ. تُوفِّي مُنْذُ سَنَةٍ؛ صَارَ ضَعِيفًا. لا يَأْكُلُ؛ شَهِيَّتُهُ مَسْدُودَةٌ. وَلَوْنُهُ حَائِلٌ. ومَحْجِرَا

عَيْنَيْهِ مُتَّسِعَانِ مُحَاطَانِ بِهَالَتَيْنِ غامِقَتَيْنِ، وعِظَامُهُ لَيِّنَةٌ هَشَّةٌ، وَجِلْدُهُ جَافٌّ لَيْس فِيهِ رَوْنَقٌ، لا يَسْتَطِيعُ الحَرَكَةَ وَاللَّعْبَ وَالرَّكْضَ، لا يَرَى الشَّمْسَ، أَحْضَرْتُ لَهُ العَامَ الْمَاضِيَ -لأَنَّهُ قَدْ بَلَغَ الخَامِسَةَ وبَدَأَ يُمَيِّزُ الْكَائِنَاتِ- سِتَّةَ كَتَاكِيتَ؛ يَسْعَدُ بِرُؤْيَتِهَا وَهِيَ تَتَحَرَّكُ حَرَكَاتٍ سَرِيعَةً، لَكِنَّهَا مِثْلَ مَخْلُوقَاتِ اللهِ تَنَامُ اللَّيْلَ وَتَصْحُو النَّهَارَ؛ فِي النَّهَارِ تَتَحَرَّكُ فِي كُلِّ اتِّجَاهٍ؛ لَمْ يَفْرَحْ بِهَا الْفَرَحَ الْمُتَوَاصِلَ كَمْ مَرَّةٍ تَمَنَّيْتُ أَنْ يَرَى شَقَاوَتَهَا فِي النَّهَارِ! لَكِنْ لا بُدَّ مِنَ الْمُنَوِّمِ لأَخْرُجَ وَأَنَا مُطْمَئِنَّةٌ.

قَبْلَ سَنَةٍ كُلِّفْتُ بِعَمَلٍ إِضَافِيٍّ بَعْدَ الظُّهْرِ مِنْ قِبَلِ الْعَمَلِ مُدَّتُهُ أُسْبُوعًا يُقَامُ خِلالَهُ مُؤْتَمَرٌ؛ فَاضْطُرِرْتُ فِي هَذَا الأُسْبُوعِ إِلَى الْعَوْدَةِ سَرِيعًا لِلْبَيْتِ بَعْدَ الْفَتْرَةِ الأُولَى أُعْطِيهِ جُرْعَةً ثَانِيَةً مِنَ الْمُنَوِّمِ لأَعُودَ إِلَى الْعَمَلِ، سَبْعَةُ أَيَّامٍ أَرْجِعُ فِيهَا مِنَ الْفَتْرَةِ الثَّانِيَةِ إِلَى الْمَنْزِلِ لَيْلاً. فِي الْيَوْمِ الأَخِيرِ مِنْ أَيَّامِ الْعَمَلِ الإِضَافِيِّ أُقِيمَ حَفْلٌ خِتَامِيٌّ لِلْمُؤْتَمَرِ عُدْتُ إِلَى الْبَيْتِ السَّاعَةَ الْحَادِيَةَ عَشْرَةَ لَيْلاً. عِنْدَمَا دَخَلْتُ الْمَنْزِلَ رَأَيْتُهُ مُظْلِمًا ظَلامًا لا يُشْبِهُ ظَلامَ أَيِّ يَوْمٍ مِنْ أَيَّامِ الأُسْبُوعِ. تَوَجَّهْتُ إِلَى غُرْفَةِ طِفْلِي، الْكَتَاكِيتُ عَلَى غَيْرِ عَادَتِهَا مُسْتَيْقِظَةٌ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ تَقِفُ عَلَى جَسَدِهِ تَنْقُرُ عَيْنَيْهِ وَأُذُنَيْهِ وَأَنْفَهُ؛ تَمْرَحُ.. تَقُومُ بِطُقُوسٍ وَدَاعٍ.. تُنَادِيهِ بِطَرِيقَتِهَا؟! لا أَدْرِي! الْمُهِمُّ أَنَّهَا شَعَرَتْ بِهِ أَكْثَرَ مِنِّي، مَنْظَرُهُ مُحْزِنٌ أَشْفَقْتُ عَلَيْهِ بِحَجْمِهِ الْمُتَكَرْمِشِ كَأَنَّهُ ابنُ الثَّالِثَةِ وَلَيْسَ الْخَامِسَةَ؛ الْحُبُوبُ تُعِيقُ نُمُوَّهُ الطَّبِيعِيَّ، لَوْنُهُ أَزْرَقُ يَمِيلُ إِلَى الْكُحْلِيِّ، وَعَيْنَاهُ شِبْهُ مَفْتُوحَتَيْنِ بَيَاضُهُمَا زَحَفَ عَلَى الْقُزَحِيَّتَيْنِ وَأَخْفَى سَوَادَهُمَا إِلاَّ نُقَطًا يَسِيرَةً.

مَسَحْتُ جَبْهَتَهُ وَنَادَيْتُهُ لِيَسْتَيْقِظَ وَيَتَنَاوَلَ الْعَشَاءَ. النَّوَافِذُ الَّتِي نَسِيتُهَا مَفْتُوحَةً مُنْذُ الظُّهْرِ تَعْصِفُ بِي وَبالْكَتَاكِيتِ. نِدَاءَاتٌ زَاعِقَةٌ تَأْتِي مِنَ الأَبْوَابِ وَالنَّوَافِذِ. صُرَاخٌ مَصْحُوبٌ بِعَصْفِ رِيحٍ يَخْرُجُ مِنِي وَمِنَ الْعَالَمِ أَجْمَعَ؛ رِيحٌ مَعَ شِدَّتِهَا عَجَزَتْ -كَمَا عَجَزَ الظَّلامُ وَالأَنْوَارُ وَالسُّكُونُ وَالضَّجِيجُ وَكُلُّ الْمُتَنَاقِضَاتِ- أَنْ تُوقِظَ طِفْلِي الْمُتَجَمِّدَ. أَنْهَيْتُ حَيَاتَهُ. قَضَيْتُ عَلَيْهِ. ذَبَحْتُهُ وَلَمْ أُحْسِنِ الذِّبْحَةَ لأَنِّي آلَمْتُهُ طَوِيلاً. وَأَخِيرًا قَدَّمْتُهُ وَجْبَةً جَافَّةً لِنَمْلِ الأَرْضِ.

أَضَاءَ الطَّبِيبُ حُجْرَةَ الْعِيَادَةِ. وَأَغْلَقَ التَّسْجِيلَ. وَمَدَّ يَدَهُ وَأَطْفَأَ ضَوْءَ الأَبَاجُورَةِ الْمُجَاوِرَةِ الْكَنَبَةَ السَّرِيرِيَّةَ. وَطَلَبَ مِنْهَا أَنْ تَهْدَأَ. نَاوَلَهَا مِنْدِيلاً لِتَمْسَحَ دُمُوعَهَا. وَكَأْسَ مَاءٍ لِتُوقِفَ شَهَقَاتِ النَّحِيبِ.

نظرات الطفلة منى خلف الباب

تتهادى الطرقات عبر أزيز المكيف، تخترق مخدة القطن وتتسرّب إلى أحلامي، أبواق تنفخ في بيداء تركها الليل منحة للشمس نافخوها حافين بي يدورون بأقدام تحتك بالأرض ترسم دائرة تلتهب تحتهم كقرص الشمس، تتمايل أيديهم راقصة في الهواء، مركز الدائرة شجرة شوكية مربوطة أنا إليها، جحافل رعاة البقر هابّة في اتجاههم تلتحم برؤوس تهتز بأكاليل الريش، ريش الرؤوس ينتقل إلى الخصور، والشجرة الشوكية تبدلت نخلة جوز الهند، والفلاة غابة، والأبواق طبولاً تُقرع، وجحافل الخيل سيارات (جيب) راكبوها هم رعاة البقر أنفسهم. أفتح عيْني، ضوء شفيف، السادسة مساءً أو صباحاً لا أدري، طنين في رأسي، تتوقف الطرقات كالخدرة أخذتني غفوة إلى أعماق نوم ساحر تعود الطرقات تتوالى، صحوت على صرخة باسمي أعطاني قفص دجاجات وغادر لم نتكلم تم التسليم والاستلام باتفاق مسبق، وضعت القفص على الطاولة ودخلت الحمام الملحق بالغرفة، جاءني طرق وأنا في الحمام ثم غادر قبل خروجي، فتحت باب الغرفة بعد الانتهاء من الاغتسال تلفت في السطح لا أحد بسرعة أغلقت

الباب بعد أخذ قفص الأرانب الموضوع قرب الباب. انفجار الشمس هذا اليوم لا يحتمل. ديك في قفص الدجاجات لم أطلبه ربما شك فيه لصغر سنه. هناك قفص حمامات على الأرض لا أدري متى جيء به تستدير وتهدل داخله. نقّة عالية اختلعتْ قلبي فزعاً صدرت من دجاجة تبيض. باب الغرفة يئن وينفتح أثناء قضمي كعكة آكلها بقرف ورعب تمثلت أمامي بائعة السميط وهي تدور بزنبيل السميط داخل دورة المياه. آخر مستحيل أقوم به الأكل داخل دورات المياه. كيف وصلت السميطة إلى يدي لا طعم لها. رائحة دفرة تنفذ منها ومن فتحة الباب. الشمس اختفت. السطح مليء بالبط والإوز علون الشتلات الموزعة على حواف سور السطح كتاكيت ضاجة بالوصوصة أطأها بقدمي فتلتزق بالأرض ثم ترتفع أرواحها مختلطة بالهواء محتفظة بدمائها داخل أجسادها. لم أهتم باختفاء الدكة المنصوبة تحت العريش المواجهة لغرفتي والمقام مكانها خرطوم مياه موصول بصنبور. وطشوت فيها سواطير وحبال وسكاكين وخرق بالية. أخذت منها ساطوراً وأخرجت أقفاص الدجاج والحمام والأرانب بدأت بهبد الأقفاص على من فيها بالساطور وملاحقة الهارب منها. تغافلني الأرنب القط وعالجته بضربة فصلت جسده نصفين طوليين. جاءتني خطوات الطفلة (منى) تصعد الدرج. ضحكت لمرأى خثرات الدماء على البلاط وقطع اللحم المتناثرة والمتداخلة بخشب الأقفاص. صرتُ أنا وإياها نرمي الأعضاء المقطعة في طشت سحبته إلى منتصف السطح. تضحك كلما علقت الدماء في يديها. أفزعتني صرختها

المفاجئة: قتلتِ قطك المدلل؟ رددتُ غير آسفة: اختلط علي أمره حسبته أرنباً.

صعدت أمها فجأة السطح. مسكتني من كتفي وضغطتهما: هاه أليست الدواجن مسلية؟! سآتيك بعشرات الأقفاص يومياً تتسلين بها.. (غرفتي ملآى. عمياء ألا ترى!)...

دخلنا الغرفة في كل زاوية منها دجاجة تنقر وأرنب يحفر وحمامة تستدير نظرتُ إلى ملبسي: بدليه!! كله دماء.. (هي لا تدري أن ملابسي هناك بعيدة وليس لي سواه!)...

نادت الطفلة إلى الغرفة وطلبت أن تجلب جلباباً. خرجت الطفلة ووقفت على سور السطح نادت. جاءها رمياً جلباب من أسفل. شرحته الأم بيديها من جانب واحد وقذفته في وجهي. لفيه!! وهات لباسك الأحمر أغسله.

لففتُ الجلباب وكان بالإمكان لبسه كاملاً دون شرح. ترفع أكمامه وأطرافه الطويلة. لكن لم أناقش التفتُ إلى السميط على الطاولة: خذيه!! يشعرني بالقرف اشتريته البارحة من بائعة في دورة مياه. هات خبزاً آخر!!

رفعته إلى أنفها: جميل فيه رائحة الموت التي تحبين!!

فتت السميط للدواجن في الغرفة. ثم فتحت باب الدولاب وأخرجت قفة. فلت الصرة التي داخلها وبدأت تقذف بدوائر كعك كثيرة: روحا أمي وأبي. هنا في الغرفة تنامان معك.

(روحا أمك وأبيك في الكعك) أضحك وهي تسحبني إلى خارج

الغرفـة، ارتقينـا طوباً مصفوفـاً محاذاة السـور وأطللنا على حوش كبير. قالت: هنا يرقدان.

في ضبابية شاهدت كومة تراب تترفع متناثرة عن امرأة غبراء تشبه بائعة السميط في دورة المياه. تبادلت الإشارة بالأيدي مع المرأة الواقفة بجانبي، ثم قامت من تحت الكومة نافضة التراب تقدمت. قليلاً وظهرت من فتحة الدرج متجهة إلينا وكنا ما زلنا فوق الطوب. موجهة الكلام لـي: إياك إياك تأكلـي من الكعكات اللائي في القفـة!!! (كيف وأنا أساسـاً أقرف منهـا؟؟!!) تطلعت إلى الجلبـاب الملفوفة به ثم قلبته بيدهـا: جلباب زوجي، أعيدي خياطته!! (لم أشـرحه كي أخيطه!!) ظهرت الطفلة وفي يدها إبرة وخيط تناولتهما المرأة الغبراء وجذبتني نحوها فلت الجلباب وعدلته وشرعت تخيط الجنب المقدود. كنت أتألم كلما شـاهدت الإبـرة تخرج من الطرف الثاني اشـتد الألم في جانبي الأيسر. أدنيت رأسـي آملة انتهائها. رأيتها تخيط الجلباب على لحمي، أكملتْ غيـر مبالية بفزاتي المولولة وكانـت إحداها متزامنة مع فتح عيني في عتمة الغرفة وطرقات متصاعدة تأتي من خارجها.

أزحـت جهـاز التحكـم عن بعـد المحتـرق عميقـاً جنبي الأيسـر. استقبلتني أنوار الصالة في طريقي إلى باب الشقة المرتجف من تتابع الطرقات. صاحب العمارة يزف بشـارة تخليصي مـن نقنقة الدجاج وخربشـة الأرانـب وصفـق أجنحة الحمام وبشـاعة بطبطـة البط: اشتريتها كما أمرتني من البواب وزوجته وذبحتها.. خيرتهم سكنى السطح بالجان أو الطيور!!

مال رأسي يمين صاحب العمارة. فرأيت البواب وزوجته وطفلتهما (منى) مصطفين في الممر قبالة الباب يرمقونني بنظرة المنتقم المحروم وأنا أعصر عيني من وطأة الألم الذي أحدثه جهاز التحكم عن بعد المنغرز في جنبي مدة نومة ما بعد الظهر.

هذا... من هذا....

دخـــل وقبل أن يضـــع يده على مفتاح الضوء، وقبـــل أن يخلع حذاءه عند باب الغرفة توجه وسحب الستارة، حسم الأمر دون نقاش (برد.. هواء.. طيف ما في البيت المجاور.. حتى الشـــمس الغاربة حمّلها ذنباً قبل أن تغيب) ســـرد كل المبررات، لم أظهر تذمراً من إغلاق الســـتارة، حط على طرف السرير وباستفهامات عن تصليح عطل في الجوال برّر ليده أن تمتد وتتناول جوالي من فوق الطاولة لإجراء مقارنة..

- أبو خالد، هذا جارنا؟!
- لا، صاحب مكتب تصوير الأوراق.
- أيمن، من أيمن؟!
- مهندس الكمبيوتر.

(من الألف إلى الياء متجاهلاً الأسماء المؤنثة)، ضغط رأس الجوال طويلاً وأخمده دون إذن، تحرك نحو معلاق الملابس (كنتُ الطالبة المميزة في الجامعة بلبس فانيلة رجالية نصف كم تحت ملابسها، والمشهورة بلبس بنطال تحت تنورتها المفتوحة) الملابس الشفافة والمفتوحة لها

عندي ضمانات لا يجهل هــذا يعلمه جيداً، لذلك ترك المعلاق وأخذ دفتــر الملحوظــات من على المكتــب، يعرف مكان تدويــن (كلمة مرور الكمبيوتر) خلــف الغلاف الأول، نقر ملف الصــور، فظهرت صورهم الأصلــع أقدمهم يحفــظ تفاصيله، تعداه أبو الشــوارب المفتولة من الســابقين أيضاً يتوقف عنده طويلاً، تشغله الشــوارب، يشير إليها دائماً ويهز رأســه تعجبــاً، صاحب النظارتين لا يمــل التعليق عليهما، ورمي ســمكهما بالنكات، الوجوه معتادة، مرر الشريط، يظلل صورة مســتجدة، لا أدري أيــاً من الأيقونــات ضغط.. بعد فتــرة من النبش والتفتيش في الغرفة، أعطيته إشارة بالمغادرة.

حركته بطيئة، يتلكأ في المشــي يسأل عن أشياء معلومة وتافهة، وعنــد باب الغرفة يقــوم بحركات ملاطفة، الوقت غير مناســب لها، يأتي صوته من الصالة لا يخطو إلا على ســماع صوتي، أســمع خبط كفيه على خشــب الدرج يكلمني يطمئن لقرب صوتي، يغادر صوته قليلاً ثم يعود جسداً عند باب غرفتي:

-عمه.. عمه (يموّجها بلطف وحنان، وترجٍ شــديد) آخر مرة والله آخر مرة.

في السادســة الابتدائيــة وتخاف النزول منفرداً إلــى الدور الأرضي، قلتها باستخفاف واستهانة وأنا أصحبه في النزول.

وهم أم

قالت حسنة لزميلتها ضحى وهما تتمشيان في فناء المدرسة: أعيش وحيدة مع أولادي الثلاثة، هاتي أولادك وتعالوا اقضوا يومًا معنا!

اتفقتا على أن يُحضِر زوج ضحى زوجته والأولاد عند باب المدرسة يوم الجمعة الساعة الثالثة عصرًا، وتأتي حسنة لتصحبهم إلى بيتها القابع في شارع ضيق غير معبّد. وعلى أن يأتي الزوج مرة أخرى في العاشرة مساء لأخذهم.

قالت ضحى لحسنة لماذا لم يأتِ الأولاد معكِ؟

- ينتظرون أولادك في البيت. هم يخجلون من الناس البالغين، تعوّدوا على ذلك، لا يخالطون إلا الذين في سنهم، هذه طبيعة أطفال الضواحي البعيدة. نحن في هذه الضاحية لنا قوانيننا التي تفرق بين الكبار والصغار، أنا شخصيًّا لا أحبذها، لكن أطفالي اكتسبوها من بيئتهم، أنتم في المدينة لا تلزمون أطفالكم بهذا... أطفالي سيسعدون بأطفالك منذ وقت طويل لم يلعب معهم أحد في سنهم.

- في سنهم فقط. الطريق حتى الآن يقول في سنهم ومن غير سنهم. من أين تخرج طالبات المدرسة؟!

- على فكرة! ما الذي تم بخصوص طلب نقلك إلى مدرسة في مدينتك؟

- تعبت من المراجعات والتردد على إدارة التعليم. ليس هناك جديد. والمصيبة لا تؤاخذيني على ما سأقول لم أتصوّر يومًا من الأيام أن يتم نقلي لأعمل في ضاحية لم أسمع بها. ولم أكن أعلم أنه لا تزال في هذا الزمان مناطق مثل هذه الضاحية. ضاحية معزولة ومهجورة. عبارة عن فضاء واسع من تراب. خالية من مظاهر الحياة. لا يوجد بها إلا عشرات المنازل المتفرقة. ومدرسة بائسة. أقضي فيها عقوبة تقدير مقبول.

ضحكت حسنة وقالت: هذا تقدير مَن توقّت موعد ولادتها مع موسم الامتحانات.

- غريبة! كيف عرفت؟

- سمعتك تقولين هذا للمديرة.

- على سيرة المنازل أين بيتك؟ لقد قطعنا مشوارًا طويلاً ولم يظهر!

- بقي القليل. أرجو ألا يكون أولادك قد تعبوا!

ولاح بيت صغير من الطين بباب قصير. دخلوا وعبارات الترحيب تسبقهم.

جلست المعلمة ضحى وأطفالها وذهبت حسنة إلى المطبخ

وأحضرت الفاكهة والكعك والبسكويت والمكسرات والأشربة الحارة والباردة. وقالت:

- تعالوا يا أولاد. أطفالي في انتظاركم في غرفتهم سيطلعونكم على أجهزة اللعب الجديدة. وقالت لضحى على إذنك سأشبك جهاز اللعب إنه نوع جديد نزل في الأسواق حديثًا.

أدخلت الثلاثة على شكل طابور الأول خلف الثاني لضيق الباب ثم خدّرت الأخير بوضع مخدر على أنفه. وهي ممسكة به -حتى لا يسقط- وضعت الخرقة على أنف الثاني وحين التفت الثالثُ لاقته الخرقةُ في أنفه. سحبتهم وحملت كل واحد ووضعته على طاولة مقابلة لسرير من أسرة أبنائها الثلاثة ومدت أنبوبًا بلاستيكيًا لنقل الدم من ذراع كل طفل من الأطفال الثلاثة إلى ذراع كل طفل من أطفالها. ثم خرجت إلى الأم: آسفة على التأخير كنت أصلح توصيلات الجهاز الكثيرة المعقدة. وضعت وجبات خفيفة في طبق وقالت سأذهب بها إلى الأطفال في الغرفة. ثم عادت وتحدثنا وشربنا وأكلنا وضحكنا على مواقف بعض المدرسات مع المديرة والطالبات. وقالت حسنة سأطبخ لكم في العشاء أكلة شعبية مشهورة في الضاحية. ردت ضحى: بشرط أن تصطحبينني معك في تحضير الطبخة في المطبخ.

جاء وقت الغروب. قالت حسنة ألا تودين السلام على أولادي!

- لا أحب إحراج الأطفال وإيذاء مشاعرهم. طالما قلت لي عن خجلهم وعدم اختلاطهم بالأشخاص الكبار.

- أظنهم بعد هذه الفترة الطويلة من الجلوس مع أطفالك واللعب معهم قد يقبلونك كبالغة من طرفهم.

دخلت ورأت مشـــهد ستة الأطفال المتمددين كل طفل يوازي طفلاً، تقدمـت دارتْ عيناها في المشـــهد جيدًا؛ أنابيب نقـــل دم، أطفال زرق، متجمديـن جفت عروقهم مـــن الدماء فارقوا الحياة، أجســـاد خامدة، فقدت صوابها، أصابها الجنون، لم تصرخ ولم تبكِ، ولم تنطق بكلمة تُحسّ عقلها، أجلســـتها على الكرســـي وربطتها، لم تشعر بنفسها ولا بالدنيا من حولها، تنظر فقط إلى الأسرة الثلاثة.

في الساعة العاشرة كانت حسنة تقف عند المدرسة ومعها هاتف ضحى تطلب منه هاتف الزوج، ومن دون تحيات قالت:

- أين أنت الآن يا أستاذ علي؟

- أهلاً.. هأنذا ســـأدخل ناحية المدرســـة خمس دقائق وأكون عند الباب.. أين ضحى والأولاد؟

-هاهم.. ضحى مشغولة مع الأطفال تربط حذاء أحدهم.

بعد خمس دقائق وقفت سيارة ونزل الرجل مستغربًا فلم يرَ إلا امرأة واحدة تقف عند المدرسة: أين ضحى والأولاد؟!

- تعال معي.. ينتظرونك في البيت!

ركبا السيارة. قال الزوج وهو ينظر إلى هاتف زوجته بيد المرأة:

- مـــا الذي يحـــدث.. ألم تكن ضحـــى معك مشـــغولة بالأولاد.. أرجـــوك حدثينـــي! هل حدث لهم مكروه؟ أنا قلـــق من عدم مجيئهم معك.

قالت: هم بخير.. سترى بنفسك.. سقْ!

وبدأت توجيهَه في طريق طويل مظلم خالٍ، وفي اتجاه غير اتجاه بيتها، وحيثما شعرت أنهما بعيدان عن الضاحية غرست نصل سكينة في ظهره من جهة اليسار، وبدأ ينزف حتى فارق الحياة، أخذت مكانه وقادت السيارة إلى بيتها.

نزلت من السيارة وسحبت جثة الرجل ودخلت بها في غرفة الأطفال، والمرأة مازالت مذهولة فاقدة الذهن مربوطة بالكرسي، رمت جثة الرجل الغارقة بالدماء تحت أقدام الزوجة، فكت أنابيب نقل الدم وشرعت تنادي أطفالها:

- مرزوق.. فرج.. سعدية! هيا انهضوا! قد عَوَّضتُ دماءَكم النازفة بدماء جديدة.. ألم يقل الطبيب «إن سبب وفاتكم هبوط في الدورة الدموية نتيجة النزف الشديد» هيا اصحوا!

بلا ضجيج ولا حراك ظلت تنفذ ولعدة أسابيع من بيت طين يبعد عن ضاحية منزوية عشرات الأمتار رائحةٌ عفنة لم يشمها إلا السائب من الكلاب.

العودة

أُدخل رأسَها في الكيس وغطّى سواده ما حولها وتراءت لها في الظلام أمها وهي تجلس على الكرسي أمام حمامات النساء في المول الكبير لتمدهن بأوراق المناديل والصابون أو تحفظ لهن غرضًا حقيبةً أو عباءةً، وكانت لا ترى يدَ أمِها، التي تصحبها في بعض الأحيان هي وأختها إلى المول، بعد هذه الجلسة الطويلة أمام الحمامات وتدفق النساء طوال فترة المول على الحمامات تُرفع لامرأة لتنقدها القليل من الريالات إلا كل مرة من عشرات المرات.

استدارتا على طاولات المطاعم ومحلات الوجبات السريعة، كعادتهما عندما تصحبهما أمهما إلى المول، لتشربا بقايا أكواب الكوكاكولا لكنهما اليوم لم تجدا الكثير من البقايا؛ قررتا الذهاب إلى أمهما لطلب نقود؛ فلم تكن حصيلتها من الجلوس الطويل أمام الحمامات إلا أربعة ريالات.

قالت أختها أربعة ريالات لا تكفي لشراء كوبين من البيبسي. سألتا امرأة، تجلس في إحدى استراحات المول تتناول وجبة وكان معها ذلك الكوب الكبير من البيبسي، عن سعره، فقالت حصلت عليه مع

وجبة متكاملة دفعت فيها خمسة وعشرين ريالاً قيمة الوجبة. ذهبتا إلى بائع الوجبات الخفيفة وطلبتا كوبين من الكوكاكولا. قال الكوب الواحد بثلاثة ريالات. قالت أختها لماذا لا نشتري علبة بيبسي بدلاً من الكوب. الواحدة بريالين بذلك نحصل على اثنتين. قالت: لا. أريد كوبًا كبيرًا مليئًا بالثلج وله مصاصة. لأني ذات مرة مررت بجوار طاولة تركها أصحابها بعد تناول وجباتهم ولم يصلها بعد نادل التنظيف وشربتُ ما قد تبقّى فيه من الكولا. كانت لذيذة بشكل غريب. لا يشبه طعمُها طعمَ كولا العلب؛ يقرقر الثلج فيه وتدفع المصاصة السائل البارد من قعر الكوب ليمر باللسان ويلتصق حلاه فيه. ليس كالعلبة تدفعه مباشرة للحلق.

اتفقتا أخيرًا على شراء كوب واحد لكلتيهما. جلستا على إحدى عتبات المحلات وبينهما الكوب الكبير المليء بالثلج تتسابق أيديهما على رفعه لشفط. عبر المصاصة الكبيرة. ذلك السائل السكري المثلج. قالت دعينا نخرج ونشرب الكولا خارج المول هنا المكيفات شديدة البرودة. والطفلة هناك تنظر إلينا متعجبة من الكوب الواحد لاثنين.

جلستا على حافة رصيف من أرصفة الشارع وبينهما كوب الكولا وكانت تجلس خلفهما على الرصيف نفسه امرأة كلما مر بها مارٌّ أسقط في يدها نقودًا. ولاحظتا أنها عندما يفرغ الرصيف لدقائق من المارة تفتح حقيبة وتضع الفلوس. قالت لأختها: انظري في الدقائق القليلة التي جلسنا فيها حصلت ربما على مئة ريال. وأمي التي

تنظف الحمامات طوال اليوم وتدعك بلاطها وترش المساحيق المسببة للحساسية وتضغط السيفونات بعد خروج كل امرأة وتجلس لتمد السيدات بالمناديل والصابون وتحفظ لهن حقائبهن وأغراضهن تمُرُّ الواحدةُ منهن دون أن تضع في يدها ريالاً واحدًا، وهذه تجلس دون عناء ولا مشقة في هواء نقي خال من الروائح وتحصل على كل هذه المبالغ.

بينما تتدافع أيديهما على الكوب الفارغ تمامًا مر بمحاذاتهما رجل فرفعت يدها مازحة ومقلدةً المرأةَ خلفهما. بسرعة ودون انتباه منها وتوقع سحب الرجل من جيبه ثلاثة ريالات ووضعها في يدها وعدّى دون أن ينظر إليها أو يعطيها اهتمامًا. انفجرتا ضاحكتين، تتمايل إحداهما على الأخرى.

عندما استويتا مع أمهما على مقعد سيارة الأجرة في منتصف الليل وقت إغلاق المول نظرتا إلى الرصيف وتذكرتا الموقف وضحكتا. وقالت لأمها: ماذا تستفيدين من جلوسك قبالة الحمامات وأنت لا تحصلين إلا على الريال والريالين؟ ردت الأم: لي راتب، قولي الحمد لله إن الريال والريالين غيرَ الملزِمات النساءَ بدفعهن ندفعها أجرةً للتاكسي وإلا أكلت المشاويرُ الراتبَ.

استهوتهما الشحاذة دون علم أمهما كلما صحبتهما معها إلى المول، حتى بعد موت أمهما بثلاث سنوات إذ بقيتا في الغرفة الوحيدة الذي اجتزأ الجصُّ منها مترًا طولاً وعرضًا ليحوي في داخله جُحرًا وسطلاً مُعبَّأً بالماء لينتهي مسماه بالحمام، وفي إحدى زواياها كَانُونٌ بجانبه صندوق يحوي مواعين جنيت عبر السنين من مكبات

القمامة في أحياء الطبقة الوسطى المحيطة بحيهم؛ وهذا ما يسمى بالمطبخ. الغرفة هي ورث الأم وطفلتيها بعد وفاة الأب منذ سنين في الحي الشعبي الفقير المنسي في التعاريج المظلمة للمدينة الشاهقة بالمباني العالية. الحي الذي هجره معظم سكانه من أهل البلد وسكنه بعضُ الجاليات المخالفة القانونَ أو المقيمة قانونيًّا لكن مازالت لم تجمع المال الكافي من العمل لقصر مدة إقامتها في البلد. وبعضُ السكان من أهل البلد الذين أقعدهم ربُّ الأسرة في مجاري هذه الدعاويس المنسية وجحورها الضيقة بسبب إزهاق ماله في المخدرات.

ذات ليلة وهما جالستان تفرقان محصول الشحاذة بعد يوم مديد قضتاه في التكشُّع في الشوارع؛ رأت أنها أحق بالنصيب الأكبر لأنها سعت في مسافات بعيدة وراء الناس وغامرت بالدخول بين السيارات في طريق عام وسريع. لكن أختها رفضت هذه القسمة لأن شرط توزيع النصيب لم ينص على طريقة الشحاذة بل على جمع المال المشحوذ وتقسيمه بينهما. تشاجرتا وتشابكتا بالأيدي وعيّرت الأخت الكبيرة الصغيرة بكلمة جارحة فما كان من الصغيرة إلا أن أخذت المخدة الهرئة المتسخة وألصقتها في وجه أختها، ولم ترفعها إلا وأختها قد فارقت أنفاسُها الحجرةَ وصارت جسدًا جامدًا أزرق.

عندما ذهب الغضب لم تشعر بالندم ولا الحزن على أختها وكأن الذي غادر الحياة شيئًا لا يعنيها بل إنها أحست خفةً في الحياة وكثرةً في المال. وجاء إلى عقلها الخالي من أيما معلومة عن التحلل والامتصاص وكل ما يتعلق بالأجساد وفنائها اقتراحٌ هدية من

الشيطان عملت بموجبه؛ فاشترت شنطة وملأتها بالتراب ووضعت جسد أختها فيه وركنتها على جدار من جدران الغرفة. التراب الذي لا تعرف هي خصائصه لكنها استلهمته بالفطرة خلصها من رائحة العفونة وسيخلصها من الجسد كاملاً.

بعد ستة أشهر أشهر قضتها في حرارة شديدة ورطوبة عالية سمعت في عز نومها طرقات وخبطات. صحت عليها مفزوعة تنظر في كل اتجاه في الغرفة الضيقة، فلم تتبين مصدر الضربات. وضعت أذنها على باب الغرفة فلم تسمع شيئًا. خافت من أن يكون مصدر هذا الطرق أحد السكارى الذين يملؤون الحارة في نهاية الأسبوع وفي أواخر الليل. رجعت إلى فراشها خائفة من هذا الهاجس. أغمضت عينيها تحت الغطاء بذهن نشط. طيّر الفزعُ منه النومَ. في اليوم التالي وهي نائمة، وقد أذهب عنها الدورانُ في الشوارع قلقَ الأمس وحتى التفكير فيه، سمعت خبطات أشد من خبطات الأمس وأعلى. قامت على إثرها تتبع المصدر وقادها صوت الخبطات إلى الشنطة. تلبّسها الرعب من صاحب الطرقات، والخوف من انكشاف أمرها إذا ظلت هذا الضربات بهذا المستوى المسموع. عزمتْ على ألا تفتح الشنطة حتى يطلع النهار. خفّت الضربات وتباعدت مراتها. في الصباح قررت تناسي الصوت وأنه سيخمد مع مرور الوقت من تلقاء نفسه. هذا القرار أشعرها بالقوة والارتياح. في الليل قامت مفزوعة من هبدات تضرب غطاء الشنطة فيرتفع.

وضعت المفتاح في القفل وفتحت الشنطة ورفعت الغطاء بسرعة

شــديدة مبتعـدة تجاه باب الغرفـة، لم يخـرج شـيء، انتظـرت فـلـم يظهـر شـــيء، تقـدمـت عـلـى حـذر مبقـيـة إحـدى رجليها قـرب الباب مادة الأخـرى إلى الشـنطـة لتنـظـر داخلها، فإذا كـائن حـي طـويل وعـريض يلـف جسـمه على شـــكل دوائر لـكبــر حـجـمـه مع ضيق المـــكان. أخرجها الرعب من الغرفـــة تطلـــب النجدة من أقرب بيت مســـكون فـي الشـــارع، فـخـرج لهـــا أهله ظانين أنها تطلب الإســـعاف لأهل بيتها، فلمـــا رأوا الكـائن ذا الفـقـــرات العـديدة والأرجل الكـثيرة بحجمه الضخم غير الطبيعي خافوا الاقتراب منه وطلبوا الدفاع المدني. شـــكَّ الدفاع المدني في أمر الشنطة المملوءة بالتراب وأحالوا الفتاة لأحد مكاتبهم للاستفسار، ولعجب منظر الكائن أمروا بعدم قتله ونقله إلى مختبر أحياء.

قال طبيب المختبر للضابط: الرطوبة العالية والحرارة الشديدة التي مرت في الأشـــهر السابقة مع المكونات العضوية الصادرة من جسم الميتـــة مع التراب الـــذي أيضًا له مركبات عضوية شـــبيهة بالمكونات العضوية للإنسان تكوّن بقدرة الله عز وجل هذا الكائن الحي. وجميع الكائنات الحية خلقها الله تعالى بهذه الطريقة؛ اتركْ بقايا طعام في مكان حصين رطب وحار فإنك ستجد بعد فترة أن كائنات حية خُلقت مـــن المركبات العضوية لهذا الطعام. وعامـــةً عنصر البروتين إذا وجد في أيما عنصر تحت حالات مناخية معينة قد يُخلق منه كائن حي مثل الحشرات الطائرة، خصوصًا عندما يتعرض هذا البروتين إلى التراب عبر الغبار. وأعتقد أن الله ســـبحانه قد خلـــق آدم بهذه الطريقة، وجميع كائنـــات القبـــر من خنافس وعقـــارب وحيـــات ودود يخلقها الله بهذه

الطريقــة أي بطريقة التكوُّن وليس بطريقــة التزاوج. فلو أنك عزلت جثة إنسان في مكان حصين مثل التابوت أو غيره أو حتى زجاج ستجد ذات يوم وفجأةً كائنات حية هوامّ وحشراتٍ تتحرك تروح وتَجيء؛ تكوّنت بدعم الرطوبة الموجودة في جسد الميت. فإذا أردت إبقاء الشيء بعيدًا عــن تكوُّن الكائنات منه؛ جففه مــن كل رطوبة داخله. وقاعدة وجود التــراب علــى بروتين في جو رطب حار ليســت قاعدة أساســية لخلق كائــن حي، لأنك لو وضعت طحينًا فــي كيس داخل ثلاجة ورجعت له بعــد فترة فلربما وجدت كائنات حية خلقها الله مثل الســوس. وهذه الدابة الكبيرة التي أمامنا شــبيهة بسُــرُفة الثمرات ذات المفصليات المتعددة والأرجل الكثيرة، ولكن الاختلاف في الحجم إذ لم أر في حياتي حيوانًا زاحفًا في ضخامته وطوله وعرضه.

قال الشــيخ للضابط: ربما لم تكن المتوفاة تصلي، وهذا الكائن هو الثعبان الأقرع المسمى الشــجاع الأقرع المختص بتعذيب تارك الصلاة، لكن أرجو ألا تنشر الخبر للعامة لأن صور عذاب القبر لا تظهر للعيان، والله أعلم.

قال الضابط: الروح نفخة أو نفحة الله ســبحانه وتعالى، والنفس هــي الدم لذلك شــربُ الدم محــرمٌ في جميع الأديان الســماوية لأنه هو النفس. وجســد الكائن الحي يتكون من روح ونفــس؛ فأعتقد أن هــذا الكائن الحي يحمل روح الأخت المقتولة، وجســد تختلف صفاته التكوينية عن الجســد البشــري لأن المركبات العضوية المتكوِّن منها اختلفت تركيباتها واختلفت أجواؤها المناخية.

ودَّع طبيب المختبر الضابط والشيخ وقال: أيًّا يكون، نحن في المختبر سنضع هذا الكائن الحي تحت الملاحظة لدواعي دراسية وبحثية، وأضاف ضاحكًا: وسنطلق عليه لقب أم أربع وأربعين رِجْلا أو السرو الكبير.

عندما صدر حكم الإعدام بحقها طلبت أن تعدم شنقًا وحين عارضوها لأن هذه الطريقة في الإعدام غير معمول بها في البلد. قالت: البهيمة يُحرَّم خنقها لأنها تؤكل والخنق يحجر الدم ويحجزه في الجسد فيفسد ويتسمم، وأنا لا أظن أن أحدًا سيأكلني إن قتلت.

أُدخل رأسُها في الكيس وغطّى سواده ما حولها، الساعة الثامنة صباحًا عندما تأرجح جسدها فحصه الطبيب وقال: سبع دقائق وتخرج الروح.

فوجئ مساعد طبيب المختبر عند دخوله المختبر الساعة الثامنة صباحًا بالكائن الفقري الضخم منقلبًا على ظهره بالكاد يحرك أرجله الشعرية الدقيقة والكثيرة جدًا ويتنفس بصعوبة كأنه يحتضر، فاتته ملاحظة الكيفية التي تمت بها طريقة الانقلاب.

أمر الطبيب عندما بقي القلبُ يدق أكثر من سبع دقائق بإحضار مشرط ليكشط الشرايين ليتوقف القلب وتخمد الأنفاس، فشد شرايين من الرقبة وشرايين من اليدين والرجلين فسالت الدماء المتحجرة وسالت روحها خارج جسدها.

نادى مساعدُ طبيب المختبر رئيسَه وأخبره أن حركة الكائن توقفت تمامًا وأنه دَهِشٌ ومستغربٌ سيلانَ دمٍ من جسده مع أنه لم يُجرح.

التزغيط

منظرُ زوجته، وهي فاسِرة ثوبَها واضعة البطة بين فخذيها قابضة على منقارها والبطة شاحطة في عنقها تعف برأسها من الألم تحاول إفلات منقارها من قبضة الزوجة التي تغط يدها الأخرى في طبق وتبدأ بغفص محتواه ثم بمهارة صانع تخرج كرة خبز مبللة بالماء وتدفسها بمنقار البطة ثم تحز بأصابعها على بلعوم البطة لتدفع تلك الكرة الناشبة وتمررها على طول رقبة البطة، لم يكن يمثل له شيئًا سوى زوجة ترعى بيتها بهمة وحماس. بعد خروجه من الاعتقال المؤقت الذي نصحه فيه محاميه، طالما لا علاقة له ولا معرفة بالشباب الذين ذهبوا من الريف إلى القاهرة لإحداث بعض المشكلات السياسية، بالإضراب عن الطعام. ونصحه زملاءُ الزنزانة بترك عبط المحامين حتى لا يُدفع إلى عذاب الإطعام القسري خصوصًا بعد سماع استحداث طريقة جديدة فيه مستوردة من زبانية جوانتانامو، اقشعر جلده لها وصار يدعك أنفه يستشعر الأنابيب تعبره لتقديم الغذاء. صرخ في زوجته لتكف عن هذا التعذيب بعدما رأى أن الحالة تطورت من قَسْر الثوب إلى صكّ الزوجة مقصّ ساقيها على البطة: أليست لها روح تعاف وترغب وتحس ككائنات الله الباقية؟!

ردتْ عليه بالمَثَل: «تموت شبعان ولا تموت جوعان!» وهذا العذاب لن يدوم فأنا أطعمها لتسمن ونذبحها.

- تطعمينها لتذبيحها.

سأل رجلاً من الأمن تطعمونني عنوة وقسرًا لمَ؟ إذا كانت زوجتي تطعم البطة عنوة وقسرًا لتذبحها؟

قال رجل الأمن: نطعمك حتى لا نتهم بذبحك.

سمر ومهند

طارت روحها في الفضاء تسبح فصادفت روحَ صديقة لها فقالت لها: ما شاء الله شكلك بصحة جيدة؛ ممتلئة ولونك مزهر مشرق، مع أنك متِّ وأنتِ غاية في المرض وبعدما تدهورت صحتك!

- نعم، متُّ بالمرض لكن روحي عادت إلى مرحلة قبل إصابتي بالمرض، وأعتقد أن جميع الأرواح التي خرجتْ من الأجساد المريضة ترينها هنا في حالة جيدة؛ في حالة ما قبل المرض.

- ولم لا تقولين إن روحك شفيت من المرض بدلاً من أن تقولي (عادة إلى مرحلة ما قبل المرض)؟!

- لأني في أثناء المرض كرهت عصير البرتقال، والآن أشعر أن نفسي متلهفة إلى كأس من عصير البرتقال. وهناك ما هو أكثر دلالة وأوضح في أن روحي عادت إلى ما قبل مرحلة المرض، هو أن الأشخاص الذين ماتوا بحوادث الطرق وفقدت أعضاؤهم أو قطّعت جاءوا هنا بكامل أعضائهم أي وهم في مرحلة قبل حدوث الحوادث. وهذا دليل على أن الأنسان تنتهي حياته من الأرض قبل أن يصاب بالشيء الذي يكون سببًا في موته سواء أكان حادثًا أم مرضًا.

- لكني سمعت أن حياة الإنسان تنتهي قبل موته بأربعين يومًا فقط، حتى أن كتابة أعماله (السيئات) وربما الحسنات تتوقف كتابتها في هذه الفترة.

- المهم.. ماذا فعلتِ في الامتحان؟

- الامتحان؟! كيف أخضع للامتحان وجسدي مازال مسطحًا في المستشفى ينبض تحت الأجهزة، وأنت تعرفين أنه عند الامتحان تُعاد الروح إلى الجسد للسؤال.

- على العموم الأسئلة ثلاثة، وأنت تعتقدينها في الحياة، وستجيبين عليها في الممات.

- لكني خائفة لأني متُّ منتحرة، والمنتحر -كما تعرفين- كافر.

- منتحرة يا ساتر! لماذا؟

- كان اتفاقًا بيني وبين سالم، حتى تلتقي روحانا، حين رفض أهلي وأهله زواجنا أن ننتحر في اليوم نفسه والساعة والدقيقة، وفي أثناء مكالمة تلفونية بلعنا كمية كبيرة من الحبوب... ليتك يا رقية تساعدينني على البحث عنه!

- البحث عن الأرواح سهل. في هذا الطريق تمر جميع الأرواح الجديدة، لأنه مدخل البرزخ؛ لذلك دائمًا أقف عند مدخل الممر المؤدي إليه، فربما يدخل أحد من معارفي، خصوصًا (رغد).

- رغد، لكن (رغد) طفلة.. الأجدر بك انتظار أحد العجائز من أقاربك ومعارفك.

- لا أريد العجائز.. يصيبونني بالإحباط والاكتئاب.

- طيب افرضي أن (سالمًا) مر قبلي خصوصًا أني متسطحة في المستشفى منذ عدة أيام.

- حتى ولو؛ الأمر سهل. مع أن المستجدين يسبحون في الفضاء على استحياء؛ بالإمكان...

- انظري هذه (فاطمة) معلمة الرياضيات التي تسكن في شقة.. سعودية وتسكن في شقة.. منذ متى وهي هنا؟

- جاءت قبلي هي وجميع أفراد عائلتها بسبب حريق أو حادث مروري. لا أدري!

- أكيد بسبب حريق.. تذكرين البسكويت بالسمسم؟

- بسكويت بالسمسم؟!

- نعم. الذي تصنعه من السكر. تضع سكرًا وماء في قدر ثم تتركه ليغلي إلى أن...

- دعي السمسم والسكر يا روح ما بعدك روح.

- زعلت؟! أنا آسفة لم أقصد. وأنا مثلك تمامًا. وحالي من حالك.

- أقول لكِ بالإمكان التقاء روح سالم. لكن لا أعتقد أن روح سالم هنا. لأنه بمجرد تمنيك رؤية أحد معين ستجدينه أمامك مباشرة.

- جيد أنك قلتِ لي هذه المعلومة. حتى لا أتمنى رؤية عمي (صالح). وجدي (راشد). فقد رفضت خطبة ابن عمي صالح. وأخشى أن يقولا رفضت ابننا وانتحرت بسبب آخر.

- لهذه الدرجة تحبين (سالمًا)؟!

- كانوا يسموننا لشدة حبنا (مهندًا وسمر).

- مهند وسمر. قصدك مهندًا ونور.

- أوه. صــح.. أنــتِ من زمن مهند ونور لا تَعِيْن مهندًا وســمر.. لا.. الآن بعد مهند ونور هناك مهند وسمر ومهند وجميلة. ومهند ورشا. ومهند وكل أسماء البنات.. سأجرب وأتمنى رؤية خالتي (طرفة)!

- (سمر) بنت أختي! كيف حال أختي وأمي وبقية إخواني؟

- بخير يا خالتي. أوه يا خالتي. انظري! زوجك (فهد).. منذ متى مات؟

- لا يا سمر لم يمت. هو نائم.

- نعم. يا ســمر هذه الطريقة التي كنت سأحدثكِ عنها لالتقاء الأرواح.

- أوه. يا خالتي نسيتُ أن أعرفك. هذه صديقتي رقية.

- طيب يا بنات. لا مؤاخذة... حبيبتي (سمر) أنا مستعجلة لا بد من أطلب من فهد بعض الطلبات قبل أن يصحو من النوم.

- والآن يا ســمر ذكــرتُ لك طريقتين الوقوف عنــد مدخل البرزخ؛ وتقولين ربما سبقك في المجيء. والتمني؛ وهأنتِ تتمنين ولا يظهر. فلم يبــق لك إلا الطريقة الثالثة التقــاء روحه في حال نومه. وهي طريقة تحتاج إلى بحث.

- في حال نومه.. لا أفهم.

- عندمــا ينام الإنســان تغادر روحه جســده وتســبح في الفضاء بين السماء والأرض أو ما يطلقون عليه البرزخ؛ وعندئذٍ بإمكان روحك أن تلتقي روح سالم مصادفة. وبمجرد أن يستيقظ تذهب روحه عائدة إلى جسده.

- معنى هذا أن الأرواح التي تسبح هنا أرواح أموات وأحياء نيام.

- نعم.

- ما الفرق بينهما؟

- الفرق بسيط (بالشعور)؛ ستشعرين بالميت أنه ميت، وستشعرين بالحي أنه حي.

- يا ويلي، لا أريد أن أرى روحيْ والدي وأخي (محمد) النائمتين! ماذا أفعل؟

- عادي، استخفي!

- رقية، انظري! هذه روح نائمة.

- جيد، كيف عرفت؟!

- شعوري بها أنها حية.

- ممتاز.

- طيب يا سمر على أذنك سأدخل الممر ربما تمر (رغد) ابنتي.

«أين أنت يا سالم، هل يعقل أنك لم تنفذ وعدك معي ولم تنتحر، هل كنت تخدعني، لا أظن، أنت تحبني أكثر ما أحبك».

- سالم.. سالم..

- نعم، سمر.. أهلين.

- سالم أنت حي، لم تمت!

- آسف (سمر) خفت من الموت، والانتحار حرام.

-حرام، ولِمَ لمْ تخبرني أنك لن تنتحر حتى لا أنتحر أنا أيضًا؟!

- سـمر.. لأني كنت سـأنتحر، ووضعت حبتين في فمي، لكن لم أستطع أن أضع حبوب العلبة كاملة.

- لكن أنا وضعت حبوب العلبة كاملة مرة واحدة في فمي.

- سمر أنتِ طول عمرك شجاعة.

- وأنت جبان.

- سامحيني يا سمر أنا مازلت أحبك، لكن ما باليد حيلة.

- يا جبان يا خائن سأقتلك!

- سمر.. أرجوكِ ارفعي يدكِ عن رقبتي!

- سأخنقك حتى الموت.

-سمر أرجوكِ أني أختنق.

«استيقَظ من النوم الجبان.. اختفى.. سأجلس لك بالمرصاد، فلربما يوم من الأيام وأنا قابضة على رقبتك يتأخر استيقاظك، وتبقى روحك معي للأبد».

- بسـم الله الرحمن الرحيم، أعوذ بالله من الشـيطان الرجيم، أين الماء يا (نوال)!

- خير إن شاء الله!

- أمي، أين يا نوال؟ تحضر الماء.

- نوال تغسل المواعين.

- أريد رقم مفسر أحلام!

- خير يا ابني، قل لي ماذا رأيت؟

- رأيت سمر تخنقني.

- كابوس يا ولدي، استعذْ بالله. كم مرة قلت لك لا تنام فترة العصر!

- أما زالت سمر في العناية المركزة؟

- الله يكون في عونها وعون أهلها.

- أستطيع أن أذهب لأرها؟

- تذهب. مجنون أنت ونسيت أنك أنت السبب فيما جرى.

- أراها من بعيد. فقط.

- كف الشر يا ولدي!

- لو سمحتِ يا (آنسة)، كيف حال المريضة (سمر)؟

- اسأل الطبيب المشرف على حالتها! هناك.

- السلام يا دكتور، من فضلك ما آخِر تطورات حالة (سمر)؟

- لا شيء.. كالمعتاد. تحت الجهاز.. أهلها مصرون؛ مادام هناك نبض فهي حية.

- وهل هناك أمل في رجوع الحياة إليها؟

- الله أعلم. لكن علميًّا الموت السريري هو موت حقيقي، ولكن الأهل يتشبثون دائمًا بالأمل.

- شكرًا.

- أهلاً وسهلاً.

- ما لكِ يا سمر حزينة ومنقبضة وشاحبة؟

- لا، أبدًا يا رقية. فقط نزعوا عني الأجهزة. والآن هم ذاهبون بي لعمل مراسيم الجنازة. ومعنى هذا أنه قرب موعد دخول جسدي القبر ثم عودة روحي له للسؤال. وأنا خائفة من التلعثم خصوصًا أني منتحرة.

- الانتحار شيء، والإجابة على الأسئلة شيء. الانتحار معصية. والأسئلة متعلقة بالعقيدة.

- إن شاء الله أسألُ الله الثبات.

القسم الرابع

تاريخ

١- أخآب

الطريق طويلة وضيقة ووعرة, عليك أن تحدد الطريق التي ستبدأ منها الانطلاق. الطول سيقصر مع الاستمرار, والضيق سيتسع في المشي على الأطراف, والوعورة ستسلك مع الحذر. بعد ألف ميل ستطلق زفيرا وتتجرع قطرات الماء مع كسر الخبز, في الألف الثانية لن تقف لأنك ترى أن أمامك الكثير, في الألف الثالثة ستعاود النفس والشرب لأنك اقتنعت أنك جاد في عملك. أمامك الآن الجبل النهاية في أعلاه المغارة التي ستأوي إليها إلى الأبد. هنا ستقيم مملكتك والشعب الذي ستقوده.

ستضع الكأس على الطاولة ثم تملؤه بالحليب الساخن مباشرة تتكاثف الطبقة الأولى مكونة طبقة قشطية, فراشك مجهز على صخرة ملساء مستطيلة, المخدة منتفخة لم يغص فيها رأس, جانب السرير الصخري طبق فاكهة غير معروفة لديك ألوانها زاهية توحي بطزاجة قطفها. وأشكالها مختلفة, قطعة قماش مزركشة تتوسط المغارة الدافئة في هذه الأيام الشديدة الصقوعة, الشمعة الهامسة بالضوء في محيط الظلام الدامس تحرك شيئا ما في

داخلك؛ لكنه على كل إحساس بالبهجة والغبطة, لا تدري ما مصدر الغبطة؟! لكنه إحساس ينتابك كلما تنبهت لضوء الشمعة.

مع بزوغ الشمس تدخل عليك امرأة حسناء متشحة بجلباب أسود له ذيل طويل ممسكة بيدها طفلا مضفر الشعر بثلاث ضفائر مكللة هامته بأوراق الزيتون. يركض تجاهك مناديا « أبي « يصف مدى شوقه لك, يعاتبك لأنك أطلت الغياب, تبتسم الحسناء , تطالبك العودة وترك المغارة؛ لأن حراسك وخدمك مرتابون من غيابك, تسحب الطفل, تذكرك أنهما في انتظارك, تتبعهما تنظر إليهما من بوابة المغارة, تتابع هبوطهما من الجبل المحاط سفحه بعشرات الحرس المرافق لهما . يتحركان ويتحرك الحرس خلفهما , تصعد الحسناء العربة, ويحمل حارسان الطفل يضعانه بجوار المرأة داخل العربة , تتحرك الخيول بعد صرخة أطلقها حارس يتميز عن بقية الحرس بلون اللباس وفخامته . يغيب في البعيد الحرس والخيول والعربات, تعود إلى داخل المغارة.

بالأمس كنت تسير في الطريق هاربا من المعتقل حافي القدمين تمشي على أطراف الأصابع؛ الحذاء طويل الساق اللامع المصفوف بعناية جانب السرير مازال يحتفظ بسخونة قدمين, قدماك المصقولتان الخاليتان من أثر أغلال المعتقل وتشققات حجارة الطريق؛ تتذكر البارحة؛ كوب الحليب الساخن, طبق الفاكهة, الشمعة الهامسة. تتذكر دخولك المغارة في جوف الليل بعد سير مجهد عبر درب طويلة ووعرة وضيقة . تتذكر تفاصيل الهروب من الأسر.

تقف عند بوابة المغارة تنظر إلى الشسوع الممتد أمامك,

الجبال المحيطة بالمنطقة المكسـوة بالثلج. الشجرات العالية يتداخل اخضرارهـا مـع البقع البيضـاء المتنافـرة فوقها. الشـمس الحاضرة بأكملها في السماء عاجزة عن إذابة الثلج.

تبحث عـن الطريق الممتدة المتصلة بسـفح الجبـل المنتهية بتلك المغـارة . بالأمس فقـط اجتزتها ؟! الصخور والأعشـاب تحيط بالجبل دونما رسـم لممر مسـتقيم. الممر الوحيـد ذلك المنحني يمينا السـائرة فيـه المرأة والطفل وحرسـهما. متأكد أنك بالأمس كنت تسير عبر طريق مسـتقيم فارا من السجن. تنزل تفتش عن الطريق المستقيم. هـذه البحيرة الداكنة الزرقـة خلف الجبل لا تترك احتمـالا قد يزينه لـك تفكيرك , قطع الجليد الطافيـة الصقيلة كالزجاج تؤكد لك أن مجدافا لـم يزحها من مكانها , حتى لو أخذتـك الظنون أنك عبرت البحيرة.

يداك المتغلغلتان بالمياه الدافئة تشـعرانك بالارتخاء وصفاء الذهن. تنشـغل بالطائر الحلق. تتعجب من حجمه. يبهـرك جناحاه المفردان فـي الفضاء. ولونه الثلجي. تبتسـم إعجابا بذيلـه الطويل . يذكرك بالحسـناء المؤرقـة فجر يومك هـذا . رائحتها العطـرة لا تزال تتخلل نسمات الهواء. تود لو تتبعه . أنى سيؤول؟! هو بمفرده يحلق. هو سيد المكان.

تخلـع القميص. يلفـت انتباهك قماشـه الفاخـر. حوافه المخاطة بخيط القصب الثمين؛ تقطع البحيرة رب شـيء غائب عنك خلفها. لـم يلفت انتباهـك قبل هذا الرداء المتشـكل داخله جسـدك. ترمي

القميص على حافة البحيرة. لا أثر للسياط فوق جسدك. قبل البارحة فقط أخذت منها مئات الجلدات. رغم أنك الأسير الأثير لديهم. تعوم بالمياه الحارة تحت الجليد الصاقع. البحيرة كبيرة لكن عودت نفسك بالمهارات الثلاث: الحذر والاستمرار وإجهاد النفس. تأخذ أنفاسك بعد الحين والآخر، وتكتمها كثيرا حتى لا يفوتك الوقت. أسماك البحيرة تراقصك وتسابقك. قليلا وتصل. رائحة عفنة تشمها كلما تقدمت. اللون الصافي للبحيرة يستحيل إلى عكرة تسمك وتتطابق عند النهاية.

رطوبة عالية وحر قاتل وعفنة صاخبة تخترق أنفك تشعر بها وأنت تخرج إلى منطقة غامقة الاخضرار لا تشبه المكان القادم منه. تختلف تمام الاختلاف في جوها ومناخها وبيئتها؛ الأعشاب والأشجار تغطي المنطقة بأكملها. تسير بين الأحراش تصطدم بقدميك أجسام تفوح كلما ارتطمت بها عفونة. جثث كاملة، وأعضاء مقطعة تجدها بعد مسافات قصيرة بين الأشجار والأحراش. أدوات حادة مغروزة بالأجسام الممددة، أجساد منتفخة، وآثار لخيام محروقة، ومراكب مقلوبة لا تزال محتفظة ببعض الأدخنة المتصاعدة على ضعف. قاذفات خشبية محطمة. الأرض تحت قدميك ملتهبة بقايا جمر لا تدري أهي بقايا شجر أم بشر دمار وخراب في كل جهة. الموت صاحب الراية المرفوعة هنا. منطقة يحكمها الموت. منطقة كتبت نهايتها. تتقافز مشمئزا في خطواتك المبتوعة بخطوات. لن تكون بهذه البلاهة حتى تكون تلتفت خلفك لترى مصدر الخطوات. لا بقاء لحياة هنا. يلح في النداء.

تلتفت.. شبحا خيلا روحا رجلا لا تدري، لا تستطيع التحديد، يتقدم نحوك يردد على مسمعيك الأمانة . يأمرك أن تتبعه، يسير مسافات طويلة، لا تجاوره في الخطوات . تجد أمامك الطفل جالسا كمن ينتظر على صخرة وسط بقعة أرض حية منتعشة بالحياة لا يحيطها الموت والدمار. الطفل ذو الضفائرالثلاث المكلل شعره بأوراق الزيتون ينهض مسرعا صوبك يحتضن رجليك، لا تبالي، أمره لا يعنيك، تلتفت لذلك الرجل تطلبه الأمانة، تجده مختفيا، تدور حول نفسك لا أثر له، تخطو والطفل متشبثا برجليك، تسرع تفرج بشدة بين ساقيك، تفلت يداه، تسرع أكثر، يلحق بك، ينادي، لا تبالي لا تكترث لصيحاته، نداءاته لا تعنيك، أكثر فأكثر تسرع، يركض بخطواته القصيرة خلفك، يتعبه اللحاق، يتعثر بالأحراش، يسقط منهكا، لا تزال خطواتك سريعة، تخرج عن حدود المنطقة.

أمامك صحراء شاسعة، الشمس الوحيدة المرئية في المكان، تشعرك بالنقاء، تمشي وسطها بصدر عار يتحدى لسعتها المتضاعفة مع الوقت، تختزن مسام صدرك حرارتها حد الاكتواء المشعر باللذة. أصابع قدميك كم تشتهي الغوص في ذلك الحذاء الجلدي المجانب السرير الصخري.

تقطع مسافة الصحراء تقابلك أسوار عالية شديدة السمك: أسوار مبنية من الطوب الثقيل غير المجزأ المتلاصق المفرغ إفراغا، البوابة الضخمة وجها لوجه أنت معها، تخشى الحرس المتصلب أمامها، تقترب لا أحد يمنعك أو حتى يعيرك اهتماما، تدخل مدينة

ضاجة بالسواد، جدرانها مغطاة بأعلام سوداء، الرايات السوداء في كل ميدان، النساء والرجال جميعهم يرتدي الأسود، تدور فيها تطلب دكانا، تطلب بائعا، الجوع المميت يصرفك عن الانشغال بأحوال المدينة، الأسواق مغلقة، لا بشر يشتري ويبيع، الجميع في حداد تام. في الميدان ترى نصبا يشبهك، تقف تتأمله تسأل المارة عنه؟! إجابتهم واحدة (ملك المدينة) فجأة تفجعك هرولة السكان، يهرولون باتجاه واحد، تتبعهم . يتحلقون مطرقي الرؤوس، ترى من بعد وسط الحلقة تابوتا على منصة صخرية، تابوتا حجمه صغير، رجال دين يتلون الأدعية، وكاهن يتقدم يضع أربعين شمعة فوق التابوت، يترك الشمعات يذبن منطفئات مشكلات خطا مستقيما ملاصقا لسطح التابوت، سكون تام، حزن عميق، عيون ساهمة بخشوع، يطول الوقوف والانتحاب، تنسحب إلى الصفوف الأخيرة من الحلقة، تسأل عن صاحب التابوت، إجابتهم واحدة (طفل المدينة المدلل، وولي عهدها) تترك الحلقة تسير في شوارع المدينة الخالية، تمر جانب التمثال شبيهك الجامد، صورتك الحجرية، تقطع الميادين والأسواق تصل بوابة المدينة الشمالية تخرج منها دونما اكتراث من حراسها.

رمال فضية ندية تتلامع فيها حبات الملح تتخلل أصابع قدميك، يثور الموج يغطي لمعة الملح، ينسحب جاعلا قدميك نظيفتين، تقف على الساحل خلفك المدنية الماحدة، أمامك وفوقك زرقة البحر والسماء، تتداخل أصوات الطيور المحلقة فوق الشاطئ مع هدير الأمواج وصفير الهواء الآتي من الجهات الأربع، تسير محاذيا الشاطئ الريح

تهــز بدنك الجوع القاهر لا يرحمك. باخرة راســية يتوافد رجال عليها ذوو هيئات مريبة. ألبســتهم رثة وشــعورهم منكوشــة ولحاهم غير مشــذبة. يلبسـون أســمال الثياب. يدفعون نقودا زهيدة للواقف فوق راسية السـفينة. تتقدم وتقف في الصف. الذي أمامك يضع النقود في يد ملاح السـفينة يتجاوز الخشـبة الموصلة بين الساحل ومدخل الباخرة. تندفع خلفه دون إسـقاط لأية نقود من يدك في يد الباسط أمامك يده تتجاوزه تدخل السفينة دون إبداء معارضة ولا مطالبة لك بالدفع. سـاعات طويلة قضيتها متربعا دون حراك على جذع شجرة مجذوعة مرمية وسـط الباخرة. تصرفات هؤلاء الصعاليك تسـليك تسـري عليك. تبعـد عنك الملل خصوماتهم المتعـددة مطارحاتهم الشرسة البادئة لأتفه الحوارات.

النهـار تجاوز منتصفـه. يقف رجل صعلوك عظيم الجثة ماسـكا بقبضـة يـده طفـل الرابعـة يعرضـه للبيـع ويسـاوم في سـعره يسـتعرضه يمينا وشـمالا كالريشـة في يتحرك في يده يطيل رفعه فـي الجهـات الأكثر تجمعـا لمجموعـات الصعاليـك. لـكل مجموعة شـكل يميزها عن الأخرى. تقترب من الرجل البائع الممسـك بالطفل. تتأمل الطفل الكائن في الفجر بصحبة المرأة. وفي سـاعات الصباح الباكـر يجري وينـادي خلفك. يرفس برجليه محمـولا بين يدي الرجل الــذي أحكم قبضتــه ضائقا بالبيعة. تقع عينـا الطفل على عينيك تتوسـلانك أن تبادر أنت لا غيرك من تلك الوجوه القاسـية الطافحة بالبؤس. لا تمتلك النقود ولا شـيئا تقابض بـه. قميصك المخلوع هناك

عنـد حافة البحيرة . الصعاليك يزايدون في الأسـعار. تتفرج صامتا؛ لتعرف الفائز بالبيعة. العينان لاتزالان تستعطفانك تسترحمانك. تقف البيعة عند صعلوك من مجموعة تسم أعضادها بالشوكة ذات الرؤوس الثلاثة الحادة. يسحب الطفل كالحمل يجرجره بوحشية . عينا الطفل ترجوانك وتناديانك. أنت لا تبالي. تدخل السفينة والبحر والسماء في ظلام ملتف في ظلام. عيناك تصطدمان بالظلام الذي يصطدم بالظلام. ترسو الباخرة في تلك العتمة على ساحل هواؤه شديد البرودة. لا تدري ما الوقت. لكن العتمة لازمت السير لساعات غير قليلة. حماس الركاب للنزول لم يكن كبيرا. الخطوات التي سمعتها تنزل خلفك لا توحي بعدد الركاب في السفينة. لم تكن لهم جلبة ولا صخب. العتمة ربطتهم في أماكنهم كأنهم لم يكونوا من كان في النهار: الرشقات بالعصي الصغيرة. كؤوس الشراب والأحذية. والهجوم المباغت على كل من يخالف الآخر. تبتعد عن الساحل يلوح لك قبس نور في العلو . تقترب رافعا الرأس. تتبين شعلات في قمة قلعة. تقف على عتبتها الملأى بالأتربة والطين جراء تدافع الأمواج. تدفع بابها. أمامك الدرج تصعد تصل أعلى القلعة: صالة واسعة. الشعلات التي كنت تراها في الخارج تصدر من فتحات قريبة من سقف القاعة. تنير الخارج والداخل معا. في الصالة طاولة طويلة تحفها كراسي خشبها من نوع خشب الطاولة خشب بلوطي مع أبنوسي. الأثاث لامع نظيف لا يوحي بالهجران. بلاط القاعة من المرمر الفاخر المجلو . كذلك حجر الجدران المتين المكشوط والمصقول

جيدا. تجلس على رأس الطاولة. جسمك يرف إرهاقا ويهتز تعبا كما الذي يقضي يومه في حفر صخر تسقط الرأس الثقيل على الطاولة . تغمض عينيك. كأنك مستلق على خشبة وسط البحر تموج بك. عيناك ترفان رفتهما الأخيرة. ترتعش أطرافك. تنتفض الانتفاضة التي تسبق الغوص العميق في لذة النوم. تتشكل دوائر ضوئية من شعاع الشمس النافذ من الفتحات الصغيرة الملاصقة لسقف الصالة. تشعر بدفء يسري ويتغلغل في عظامك المتيبسة. تشعر بالاسترخاء فيما عينيك يقلقهما الضوء المتسلط على القاعة. يرتجف جفناك منهيين نوما لذيذا لتجد صفي رجال بزي حربي جالسين حول الطاولة الشاقة الصفين بشكل مهيب يجعلك على رأس هذين الجانبين. مناقشة لا تدري متى بدأت. حوارهم يحتد. أعينهم متجهة لك. أمور عسكرية وحربية يطلبون فيها رأيك. كما البادئ معهم الجلسة ولم تنم . تقف يصمتون تدفع الكرسي خلفك وتسير صوب الباب. تلقي ـ قبل الخروج ـ نظرة على صدرك العاري وسروالك المرفوع حد الركبة. تستنكر رضاهم بمنظرك وجعلهم إياك في رأس الجلسة. توسع من خطواتك تتخطى عدة درجات تنهي بها الدرب الحلزوني المفضي للرمال والساحل والبحر والهواء المالح. تبحث عن باخرة الأمس. محاذيا الشاطئ تسير مفتشا عن التي كانت. بعيدا ترى مظلة قشية على عواميد شجرية. طيف يتحرك فيها. تقترب تستوضح الرؤية. تصدر صوتا يعيرك اهتمامه ولطفه يقبل عليك باشا مستقبلا. يدعوك مشاركته فطوره الموضوع على جذع شجرة

منجّر على هيئة طاولة. لم يدعك تتكلم وتسأل. المظلة مليئة بعدة الصيد: الشيراك والسلال والنشبات. تجلس على ما يشبه المنصب. تسأله عن السفينة الراسية ليلا على الشاطئ. عرّفك أنها رحلت قبيل الفجر. تستفسره إمكانية اللحاق بها بأحد القوارب المصفوفة جانب المظلة. لا ينصحك باللحاق. اتجهوا شرقا صوب قراصنة البحر. رب قضوا نحبهم هذه الساعة. تستهجن كتمانه سر القراصنة عن ركاب السفينة: تعرف أن القراصنة خيط النجاة لهذا الصياد من هؤلاء الصعاليك المخربين المستبدين. ساعة حديثه صورة الطفل يستغيث بك. أمامك يرفع كوب الحليب. يمده إليك . ترفعه قريبا لفيك تشمئز من بقعة دم وسط الكوب. تنظر إلى يده تجد جرحا في إصبعه. تدلق قطرات من الحليب تسيح معها بقعة الدم. يمدك بتفاحة تخضمها بأسنانك فيصطبغ الجزء المخضوم بالأحمر. تنظر للصياد بحثا عن جرح في جسده؛ فتجد لثتك هاملة بالدم.

تخنقك الرطوبة المتكتلة أول النهار القابضة تماما على الهواء تعجز عن أخذ الأنفاس. كأنك وسط مادة لزجة داخل هذه المنطقة الساحلية. تبدأ المسير خروجا منها. رويدا رويدا تحس بنسمات هواء تخترق بشرتك تمزق شبكة اللزوجة المحيطة جسدك. تلاحق خطواتك الشمس. تمايز الأوقات من تنقلاتها. يشتد لهيبها وقت توسطها السماء. لكنه اللهيب الجاف المنشئ في ذاكرتك القسوة التي يعيشها ساكنو الصحاري. لا تذكر أنك قابلت أحدا منهم ولا مررت بهم. ولا رمتك الأسباب غير الآنية في صحراء قبل ذا . ذاكرتك تنشط

لأشياء غير مرسومة بدقة مشوشة تحاول ربطها جلو الضباب عنها صقل أرضيتها التي سرعان ما تلمع ثم تنشرخ. أين تخوم الصحراء. أين حدود الكوكب الذي أنت فيه. متى تختبط بحيطان جبلية كانت أو شجرية أوبشرية أو حتى شلالات مائية. لا شيء يعطيك الحياة والاختباط بمادي ما. أنت وذرات الرمال. أنت ونفحات حارقة. أنت ولا شيء.

في الأصيل بدت أسوار مدينة ترفرف الرايات فوقها. أبوابها مفتوحة. تلج بلا حراك من حراسها. مدينة متزينة بالفوانيس والزهور. رافلة بالأقمشة المزركشة المتدلية من أعلى الجدران. رسمات تحكي قصصا. زخارف منقوشة ألوانها وروائحها توحي بجدتها. جدران ناطقة بالبهجة والسرور. ابتسامة ونسيان مرارة النهار تصبغ جفاف وجهك إعجابا بحلل السكان المليئة بهم الميادين الرئيسة. موائد ممدودة معدة بأفخر الأطعمة والفاكهة تنطلق من الميدان الرسمي وتتفرع إلى الشوارع والممرات والأزقة؛ وزعت الأطعمة تبعا للمراتب الاجتماعية القاطنة تلك الشوارع. تبدأ المائدة في الميدان الرئيس بولائم العجول ثم تنقص إلى ولائم بط ثم ولائم البيض ثم ولائم الفطر. يزداد تلألؤ المدينة بأنوار الفوانيس مع اشتداد العتمة. وبدء دقات طبول قادمة من أقصى المدينة تتعالى رويدا رويدا كما التي تقترب. ضربات الدفوف المتناغمة بانسجام تصم المكان الواقف أنت فيه. موكب محاط بالحرس والجماهير تأخذ صفين على جانبي وسط المدينة. تتقدم الموكب عشرات النساء الراقصات المتزينات بزي موحد

ألوانه متضاربة صاخبة، مزركـش بالريش والفصوص الباهرة للنظر يرقصن باهتزازات الرؤوس والأيـدي، تختلط لمعت فصوص الرؤوس مع لمعت الأسـاور البادئة من المعاصم ومنتهية عنـد الزنود. خلف صف الراقصات صف الرجال المدششـين بالآلات الحادة من عصي ورماح ثم يبين بعد صف الرجال شاب عشريني يتزي زيا مذهبا، يعلو هامته تاج بريق صفوفة يتقاطع على مسافات بعيدة، بجوار الشاب فتاة مغطاة بأنسـجة حريرية متداخلة الألوان الطيفية من الرأس حتى القدمين، وجهها لا يبـين ثمة لمعات تبرق تحت الأقمشـة، تقف خلف الشـاب تلـك الحسـناء الآتيـة بصحبة طفل فـي الغار بذاك الجمال نفسـه، لكـن بأردية غير تيك، أردية غاية الفخامة والروعة، حلل تغطي جمال المدينـة المتزينة، يحمل ملامح المرأة هذا الشـاب الآخذ العناية كلها هذه الليلـة. تترك المتجمهرين تتجه جهة ولائـم البيض تأكل حتى الشـبع، تتابع المسير تخرج من بوابة المدينة الشرقية. تدخل ظلمات كأن عينيك تبثهما، لا بصيص يلامس جؤجئي عينيك يهزهما بالحياة، تتخبط وسـط العتمات المتكاثفة مع مرور الوقت، تشـعرك العتمة الضاغطة أمامك بالصداع. تتهـاوى فـي جـو منعش تصارع النعاس الساري فـي بدنك المنجذب برهافة النسمات السالبة إرادة أطرافك فـي مواصلة المسير تجاهد لا تدري ما المسافة المقطوعة؛ لكن لازورديا يصير إليه السـواد يجلو طبقات الظلام أمام وجهك ويشفط امتصاصات السـواد من حدقتيك ينبئك الوقت. رجلاك مغروستان وسط اخضرار طبقتـه العليا حمراء تفسـد بهجتك بالاخضـرار، تتجول في حقل

فراولة في سـفح الجبل. تقطف حبات فراولة مستثيرها تضغطها بين أسنانك لترشق وجهك بقطرات سائل أحمر سكري الطعم ينسيك تعب الليل إرهاق تخبطات الطريق المسدود بالعتمة. أمامك فتاة عشرينية في يدها سلة. تبتسم فتشعرك بالأمان. شيء في القلب يستحثك لتعرف أمرها. تقاطع خطواتك خطواتها. هدوءها وملامحها الرقيقة الطفولية يمنحانك الجرأة على الحديث. بتلقائية تشكو لك مرض زوجها. تدعوك للتعرف عليه . تملأ سلتها ـ بهبة الله لكائنات السهل. تتبع خطوتها الطفولية المحاطة بنقرات فراشات متجمعات حول ثمرة يستفزهن حفيف الفستان الذي لاحظت فخامة قماشه الأميري بعد تباعد خطواتها عنك. لاح بيتها الخشبي القميء. تفتح الباب لك. تتقدم تدخل وراءها. البيت داخليا غير مجزأ. لا حدود ولا فواصل بين اختصاصات الأثاث: أدوات الطبخ في الركن الأيسر. وسرير تعلوه مخدتان مخملتيان وأغطية قليلة جهة اليمين. نافذة واحدة وسط الحائط الأيسر. عفش الجلسة ملاصقا للحائط الأمامي محاذيا الباب. طفل في الرابعة يستلقي فوق السرير. عيناه لايزال فيهما الرجاء. بصوت مرير يصل نياط قلبك. تترجاك مساعدة زوجها الفاقد الوعي الملقى على السرير. تحفظ نظرته جيدا النظرة العاتبة المستعطفة الطالبة دوما الغوث منك. تستدير تخرج. الباب مازال مفتوحا. ليس بمقدرتك القيام بشيء. صوت الشابة راجيا يتبعك. لا تلتفت. يطير صوتها مع فراشات السفح. تمضي أنت. ويقف صوتها مدركة ألاّ رجاء. تدرك أن سفحا وشابة وزوجا طفلا تحت

الجبل في هلاك. توسع خطواتك تفرج ساقيك تعبئ صدرك بكميات الهواء.

دربك المسلوك نقطة غير محددة النهاية. تجعل الشمس يمينك تمشي غاسلا مخيلتك مستبدلا فراغا أسود الصور. ذباب جاءك خارجا من لا شيء خارجا من الهواء يعينك على الانشغال؛ تهشه تراقبه تضحك من مسيره. تفتقده فجأة لا تدري إلى أين صار؟ خلفك أمامك شمالك يمينك . ينقبض صدرك لفقده. عليك المجاهدة والاعتماد على نفسك في طرد الهواجس. ضغط داخلي يحسر أنفاسك. تمشي مسلطا حواسك على فراغ أرض بلا شجر ولا بقايا شجر: فأس مرمية تلقاها في الطريق. ترفعها تمرر أطراف أصابعك. لاتزال مبلولة بمادة لبنية سميكة رائحتها طازجة. تلحس أثرها من إصبع. ترسم خطا من المرارة داخل حلقك. تفتش عن شجر عن جذع عن فلاح عن كائن حي تنسب الفأس له. تطرحها تود أخذها. تلتفت بعد شوط قطعته لعلك تلمح من يأخذها. نفسك تعاتبك على تركها ملقاة وحيدة.

فترات اليوم تتداخل تطؤها قدماك. تدوس شعاع الشمس يطول وطؤك على العتمة. القمر هجر السماء. تدرك وصولك إلى منطقة منخفضة عن سطح البحر النجوم بعيدة لا ترى لها لمعة. عجزت قدماك عن تفتيت عتمة تحتها جسدك يحفظ غير قليل من الراحة. لا تحس بتعب. يائس مما لا تراه. ينشط الهواء حينا بعد حين. تستسلم مختارا لاختراقات الهواء الدافع روحك للانفلات في ظلام تعجز عن رشه ببقع بياض. أصوات عراك تأتيك كالحلم. يتأكد أمرها

يتعاودها كل حين بعد خفوت كخفوت حلقات سلسلة طويلة لم يصل ساحبها إلى نهايتها. تظل الأصوات صاعدة، وتظل متحفزا لأي مواجهة. بعد فترة صمت تتصاعد أنات منهكة موجعة شيئا فشيئا تستحيل إلى ما يشبه الشخير والحشرجة .

شقشقات شعاع تستمد طوليا من الزرقة السابقة الشروق تدرك أنك في منطقة غرب الأرض، صوت الحشرجة يختفي.. خطوات غير بعيدة وجسم حيوان بري وحشي منتف شعر الجلد يتمدد قبالة قدميك، تلحظ صعود وهبوط بطنه وصدره، عيناه مغمضتان، ويداه ورجلاه مطلقات لنفاذ الروح، لايزال نفسه هابطا صاعدا، تهزه بقدمك، لا انفعال، مستسلم جسده للتخلي عن الروح. قبضة داخلك لا تدري أ شفقة أم إحساسا في غور أعماقك ينشط لا تعرف باعثه.

بعد مجاهدة يشق الضياء الزرقة عرضيا؛ فتبدو لك صحراء عاصرت مساحتها نور الأمس وظلامه، الأمس العالق بفأسه الحارة الفائح منها عصارة جذوع شجر في مخيلتك، تتخطى الحيوان الوحشي البادي لك كجزء من بقايا الأمس، خطاك المتباعدة كاللطمات على وجه العدو، خصمك –الآن- أرض ظاهرة بلا حدود، لا تبرز ولا تخفي تضاريس، تبدي لك شجاعتها في المواجهة. لا صدى تستأنس به لوقع وطآتك، معركة بلا أسلحة وأرض جاهزة لتقضي أو يقضى فيها أمرك. دماء متخثرة متمازجة بذرات التراب تصبغ حصوات بحمرة قانية . تتابع الدماء في طريقك المسلوك على مسافات طويلة لتتجمع في بقعة كبيرة نافذة من عدة شروخ في جسد حيوان بري

وحشي أسلم أنفاسه ونظر في المبهم مظهرا أنيابه العابر منها تيار الروح. يعاودك الانقباض يؤلمك يحزنك لا تستطيع الحسم . تتخطاه كما تخطيت خصمه.

خصمك الحقيقي فراغ واسع له جهات أربع: الخلف القادم منه، الأمام السائر أنت فيه، اليمين والشمال، لا ترغب في تغيير الطريق الذي قدرته لك نفسك: السير بصحبة الفراغ الآمن، ذهنك نظيف، الماضي صار بياضا، أنت في اللحظة، لا يعني الذي كان لك شيئا، أنت الأوان، والبياض الفائت تشك فيه، الحشرة الزاحفة الراسمة طريقا خلفها لا تشك فيها مثل الأم ـ مدركة هي الآن أمامك، ابتعدت اختفت: آلمك اختفاؤها، تشك في مرورها تحت قدميك: لكن رسمة طريقها على الرمال تبدد شكك.

الشمس خلفك.. فوقك.. أمامك.. فنهايتها ونهاية المنطقة إذ تدخل في ظلام امتداداته شعلات تشعرك بالدفء والنعاس، تمشي بين الشعلات المصفوفة باستقامات متقنة. يتصيدك وجهه المتكاثف حوله الدخان النافر من حرارة الشعلات إلى برودة الأجواء، لا تستبين ملامحه، يبدو أو تتوهم طوله: فالأشياء غير المستأنسة تظهر مديدة. المنطقة مربع إضاءة وسط دائرة سوداء ضاغطة على الجهات الأربع للمربع المضيء، تكاثفات الهواء تخبئ سطوع الإنارة كالحلم تبدو لك الأشياء وسطه. تمشي أمام المتجسد الماشي أمامك ظله، يصحبك إلى خيمة تدخل فيها حيث طفل بزي حربي ينتظرك داخلها، يخرج ذلك الطويل، يترجاك القائد الصغير يطلبك مخرجا

لتلك المعركة المقتول فيها نصف الجنود. يتوسل أن تحمل السيف بمده. لا تمد يدك, لا تسقط النظر عليه. تستدير جازما الخروج. تمشي بين الشعلات الواقف بينها الجنود, لا تعيرهم شأنا, صرخات القائد تتبعك. عيون الجنود تستعطفك أن ترحم حسرات الطفل, تخرج من المربع المضاء لتدخل الدائرة السوداء. تتخبط قدماك بأجساد طرية وأخرى متيبسة تشم عفنتها.

ظلام وأنف وعينان معطلتان بالسواد. يتوقف أنفك عن العمل, وتترك لساقيك الاختيار في تحديد المسافة بينهما. أرض خالية من الجثث, وساقان متخاصمتان, وظلام ينجب ظلاما. تلغي حسابات تضاريسية في المنطقة السواد ينظف الأشياء. أيام تتعاقب دونما نهار ليل يعقب ليلا. ركضات كثيرة مرهقة. تقف قدماك الآن في مصيدة فوقك الشمس تهديك السلام, يقودونك بعد وضع السلاسل في يديك ورجليك, يركض خلفك من يربط عينيك; لحتهم جندا أشداء ملأى بهم المنطقة خلفهم الصخور والجبال الشاهقة كأنك وصلت إلى واد لم تكمل الدخول فيه. يقودونك مسافات طويلة بخطواتهم الثقيلة التابعة ثقل القيود في رجليك.. كما لو صوت صخرة تزاح. يفكون عصابة عينيك يتركونك وحيدا وسط مساحات ضيقة من الظلام ورائحة نفاذها أكبر من مساحة المعتقل الذاهب حجمه مع آخر بصيص شعاع تم خنقه بارتدام صخرة. الحجم متحد مع السواد, لا حاجة لك ليديك و رجليك المقيدات حتى عصابة العينين لو لم تزال لكانت والإزالة سواء.

٢- أخآب وأليشع

تفتح لك البوابة، الحرس خلفك، تتقدم تصعد درجات شامخا تجلس فوق عرشك، مازال صفا الوزراء منتصبين بعدما تستقر يجلس الصفان، تتلو عليهم البيان.

مع شروق الشمس يتجمهر شعبك، من علو تنظر إليهم كالخلية، تقرع الطبول من خلفك وجانبيك، لا نفس كلّ أذن، تتلو البيان وزوجك جالسة قريبا منك، يتقدم رئيس الكهنة من ظلام القصر البادي من شعاع الصباح، يخلف مكانك حيث تجلس مجانبا الزوجة، يعيد تلاوة البيان ويلتفت ليستقبل طفل الرابعة قادما وسط الحرس من داخل القصر يسلمك رئيس الكهنة تاجا أخرجه من صندوق ذهبي يحمله بين يديه، يواجهك طفل الرابعة لتضع التاج على رأسه مع انطلاق صرخات الجماهير بنغماتها غير الدالة على استحسان أو استهجان، تقف زوجك لتنتهي بكورة هذا اليوم بإعلان سار لها.

الأخ الخليفة جسده قصرا مغيب وراء الحدود، والخليفة الجديد مغيب أمره قصرا وراء حضن الكفيل؛ حسناؤك تتولى قرار وكيلك المغادر الرضاعة بالأمس القريب، تاجه لا يرى أثناء المرور تجلسه يمينك طفلا لاهيا ببريق فصوص الرداء، مؤدّب طفلك الواسطة بينك وبين الأم المتكلمة بقرار الصغير.

اعتاد صغيرك الصائر فتى الدخول عليك مشيعا بأمه يردد خلفها الكلام؛ لا صلح مع الأعداء، لا قبول لأية هدنة . الحرب القرار الحسم. إقرار الخليفة ملزم واختلافه معك يحيل القرار لأكثرية أصوات الوزراء والنواب والكهنة.

قرار في الحرب لم يؤخذ بعد؛ آلات الحرب يعاد صقلها، دارسو الخرائط

يجتمعون. القادة يترددون يوميا على وزير الحرب. في ميادين مسورة تجرى تمارين رياضية بدنية للجنود: مهارات في النط والقفز في النار الانبطاح على الأشواك والتقلب على الأحجار الصلبة. المشي على مرافق الأيدي والأرجل مقيدة بالسلاسل. النط من الأسوار وتسلقها والتدلي من الأشجار. الخيول يوميا تجري في المضمار. والفيلة يزاد وزنها. والأسود والنمور يحرس على عدم تركها جائعة حتى لا تعتاد ذلك. الحدادون يعملون بالتناوب في الورش ليل نهار. تملأ المخازن بالمؤن. المزارعون يبيعون للدولة محاصيل العام من حبوب وبقول. المجارش تجيشت للدولة تجرش الحبوب, والمطاحن تطحن القمح. المعاصر تعصر البذور. الفواكة يتم تجفيفها والمحاصيل الخضراء تم تنشيفها وفركها ناعما. الشواطئ جميعها سخرت لصيد الدولة: النساء العاملات يقمن بتنظيف الأسماك ثم تمليحها وتخزينها في صفائح. أسوار المدينة تم تلغيمها من الخارج بالنشابات والأسنة الحادة. الجند يحشد عند البوابات الشمالية الراجل منهم والفارس.

في منتصف الليل بوابات المدينة الاثنتا عشرة مغلقة . الحرب لم تعلن. الجيش يخرج من البوابات االثلاث الشمالية. يلتقون في المعكسر: خيام المعسكر منصوبة على شكل مربعات الخاصة بالجنود. والآخذة تقاطعا على الجنبين للقادة أصحاب الرتب العالية. رواقات واسعة للخيول وأخرى خشبية للفيلة, وأخرى حديدية للنمور والأسود. قائد العمليات له الخيمة الأكثر دفئا والأشرح مشى. الأغطية لها وحدها حتى المتكأ لم ينس فيها. مؤثثة بأثاث يليق بك

صاحب القيادة. العاملون في الخدمة ليست لهم خيمات مخصصة ؛ يتكدسون في عشر خيمات. قدورهم وخياشهم مرمية خارجا بانتظام. شعلات النار جاءت التعليمات أن تكون شحيحة.

ترسل رسولك بقرار الحرب. عدوك يرسل الإجابة يحدد الساعة واليوم والمكان. مدينتك مغلقة الأبواب على شعبك وزوجك وابنك الخليفة المتولي الأمر فيها. الملوك لا يخرجون للحرب حتى من تلاقيهم في تلك الحرب. أنت تسن سنة لك تقيم في معسكر الحرب وغيرك يديرها من الداخل؛ ثقتك بنفسك وحرصك على متابعة الأمور عينا بعين جاءا بك إلى هنا. القادة في أمرهم محرجون أوامرهم مقيدة بأمرك؛ لكن خبرتك في إدارة الحروب في عهد أبيك جعلت مخضرميهم يثقون بأمر الملك المترف داخل قصره الخادم نفسه في خيمته؛ منهم من خطط لك في حياة أبيك ومنهم من خطط لك في بدايات عهدك. خبراتهم عالية قديمة. الخطة ترسمها أنت الآن.

الرماة المشاة. المبارزون الراجلون والمبارزون الفوارس على أهبة الاستعداد. القاذفون النار قد تحتاجهم عند الاقتراب من مدينة العدو. الفيلة والنمور الجائعة دورهن عند نفاذ السلاح؛ فيلة وأسود مهداة لك من مشارق الأرض ومغاربها. الساعة بعيد الفجر. المكان النقطة النصف بين الشمال والجنوب. النهر شرقا, المنتصر في المعركة من يملك النهر. أعداؤك بقيادة أخوال خليفتك الأربعين. جد خليفتك ملكهم. هناك في قصره. ينادونك باسمك لا أحد يكنيك باسم ابن الأخت. صهيل الخيول وصرير آلات الحرب الالتحام دائرة محيطها

مؤطـــر مـعـلـوم مـركـزهـا. لـهــا قـمـة مـن غـبـار مـدبـدبــة حـيـنـا ومـفـلـطـحـة حيـنــا آخـر: الـتـدبـدب يـعـنــي الانـصـهـار الـكـلـي بــيـن الـفـريـقـيـن والـتـفـلـطـح يـعـنـي الإعـيـاء وتـسـاقـط الـعـديـد مـن المـوتـى فـي مـركـزهـا. لا فـالـت خـارجـهـا. الـظـلام يـضـغـط بـزوايـاه الأربـع عـلـى دائـرة الـنـار ثـم يـدفـق الأفـق سـواده عـلـى دائـر الـنـار المـضـطـرمـة فـتـخـبـو غـارقـة بـالـسـواد دافـقـة بـالـدمـاء. الـيـوم الأول جـــاء غـفـلا عـنـك كـأن شــيـئـا يـحـرك المـعـركـة. كـيـف فـلـتـت مـن رئـاســتـك. كـيـف مـضـت. مـن مـضـاهـا؟! الـظـلام لـم يـعـلـن لمـن الجـولـة الابـتـدائـيـة.

خـيـمـتـك تـشــع وسـط دمـاسـة تـلاصـق الأشــيـاء. لـم يـأتـك مـن يـطـالـب بـزيـادة الـســلاح أو رســمـا جـديـدا لـلـمـعـركـة. قـادتـك فــي مـوات لا صـوت لمـتـنـفـس. كـأنـهـم ذابـوا فـي سـفـة ظـلام. الـسـواد يمـحـو الـهـيـاكـل والأجـسـاد لـكـنـه لا يـكـتـم الأصـوات: زفـرات المحـاربـيـن وأنـات المـصـابـيـن الـتـي عـهـدتـهـا فـي المـعـارك المـولـيـة لا أثـر لـهـا هـذه الـسـاعـة. تـخـرج مـن شـعـاع خـيـمـتـك. حـراس الخـيـمــة فـي مـحـو الـظـــلام. تـخـطـو فـي كـتـل الـســواد يمـحـوك كـمـا مـحـا الأشـيـاء. قـدمـاك الآن فـي مـصـيـدة فـوقـك الـشـمـس تـهـديـك الـسـلام. كـمـا لــو صـوت صـخـرة تـزاح. يـفـكـون عـصـابـة عـيـنـيـك يـتـركـونـك وحـيـدا وســط مـسـاحـات ضـيـقـة مـن الـظـلام ورائـحـة نـفـاذهـا أكـبـر مـن مـسـاحـة المـعـتـقـل الـذاهـب حـجـمـه مـع آخـر بـصـيـص شـعـاع تم خـنـقـه بـارتـدام صـخـرة. الحـجـم مـتـحـد مـع الـســواد لا حـاجـة لـك لـيـديـك ورجـلـيـك المـقـيـدات حـتـى عـصـابـة الـعـيـنـيـن لـو لـم تـزل لـكـانـت والإزالـة سـواء.

بـعـــل اســمـه يـتـردد فـي مـلـكــة الـلّٰـه. رئـيـس كـهـنـة الـلّٰـه. خـــدام المـعـبـد يـذكـرونـــك بمـجـد الـرب فـي الأعـالـي وبـركـاتـه عـلـى مـن فـي الأســافـل. لـم (

بعل) اسمه يتردد كل حين.

زوجك الأجنبية إخوتها الأربعون أبوها الملك ينشرون معتقدهم.

الملك غير الأمين على رعاياه الذين هم أولاد الله في الحفظ والرعاية عليه لعنة الله والكهنة وخدام المعبد والناس أجمعين.

٣- أليشع بن أخآب

تصعد عدة درجات. تسير في ممر طويل يضاء بالمسارج والشموع ينتهي بتمثالين مجنحين لهما رأس الحمار بأذنيه الطويلتين. تدخل الصحن المكشوف تقف بين عموديه. يتقدم الكاهن الأجنبي خادم بعل خلفه خدم بعل الأربعمائة والخمسون حاملين الذبائح يغسلونها في الأحواض المملوءة بالزيت ذاهبين بها إلى المذبح حيث يصعدون أبخرتها المحروقة في الهواء الطلق. ترقى السلم وسط الصحن. تصل البهو ينتظرك كهنة المعبد الجدد. المنضدة اليسارية خالية من الشمعدان السباعي والمنضدة اليمانية خالية من خبز التقدمة. بين المنضدتين تقف أمام المذبح الذهبي. يتقدم الكاهن يقدم قربانا باسم (بعل).

كاهن الرب المطرود يناهك عن خالتك أخت إيزابيل ابنة الملك أبتعل ملك الصيداويين وأخت الأربعين فارسا كزوجة موعود بها. شعبك أبناء الله في الحفظ والرعاية ينكرون زواجك من الخالة بعد إنكارهم جعل معابدهم. معابد الله العلي. يعبد فيها (بعل).

أمك تأمر بإغلاق خمسة أبواب من أبواب سور المدينة والإبقاء على سبعة. أبراج المدينة الأربعة خلت من الحراس. الجد القائم في مملكته

حريص على مدينة الابنة الأم والابنة الزوج الجديد للملك الجديد.

يقام عرس مدة أسبوع كامل ، تزينت فيه المدينة بأجمل الحلل وأفخر الأطعمة من موائد العجول والأكباش والفاكهة. قدمت الأطعمة والأشربة بآنية الذهب والفضة مخصصات المعابد. وغطت الميادين وأسوار المدينة بأفخم الأقمشة المزركشة بأبهى الألوان. الشعب في عرس وأكل وشرب معطل عن العمل. البوق والناي والعود والدف الخاصات بكهنة الله المجيد التي تقام عليها التراتيل تخرج عن قدسيتها لتعزف لك أنغاما خاصة مع أناشيد لك أنت لا يمجد فيها الرب العلي.

خالتك أخت أمك عروسك الليلة.

٤- النبي إيليا

أنصت أيها الشعب. اسمع يا طير السماء المنادي بمجد الرب. اسمعي أيتها الأرض المرتعشة من قدرته. أشهد جبل الكرمل الذي أنا واقف فيه كما شهد الجبل الذي في سيناء على جلال وجه ربكم أنني قائل الحق من إله الحق الذي لا جور عنده. صاحبكم عبر الأزمان. صنع لكم مجدا. أعطاكم ومازال.

أيها الإنسان الرب لا يطلب أن تحرق جسدك ليسكن غضبه؛ يطلب منك أن تضع الحق وتحب الرحمة. هو يعرف المؤمنين به المتوكلين عليه. هو يعرف متبعيه. هو الكامل أعطوا المجد له.

رحمته كالنهر يمد فروعه لتثمر الأرض. نفوسكم كالشجر.

وأعمالكم ثمار رحمة الله الينابيع التي ترويها. تجنبوا غضب الرب؛ فغيظه ينسكب كالنار يحترق منها الشجر. ملعون الرجل الذي يحيد عن الرب قلبه. البسوا ثياب الخلاص واتبعوه؛ اتبعوا الذي بنى في السموات مجده، وأسس على الأرض عدله؛ فلا تهدموا أسسه. انتشلوا أنفسكم من وهدة هلاكه. غنوا للرب أغنية التوبة. ترنموا بأنغام المجد الذي وهبتموه من لدن الرب. حطموا بعلا وأتباع بعل.

٥- السامرة تنتظر التطهير

في أعلى الجبل ذلك الكهف أنت من شيده مقبرة أبدية للأب الملك؛ قبرا من حجر؛ في حرب خدعة رسمت حدودها الأم مع أبيها . مثلها الجند في عتمة دامسة لا تظهر إتقان التمثيل.

كل فاكهة الصيداويين من يد حسنائك. كل فراولة الوادي الخصيب. أيها الأليشع جاء دورك لتحفر لجسدك قبرا؛ فراولة مسمومة تقطع أحشاءك. لا تميتك ترميك طريح الفراش. تعيدك إلى نور الله الذي جاء به المختبئ في بيت خارج المدينة؛ ينبئك إيليا بقرب هلاك أمك بالموتة الشقية المتكافئة مع موت زوجها الخائن عهد الرب الطائع أمر أمة بعل. أربعمائة وخمسون نبيا لبعل سيموتون تباعا فانتظر أيها الأليشع؛ نبوة السماء لا تكذب؛ معجزات إيليا في إحياء أبناء الأرملات الميتين شاهد على صدق الموعد.

تخوض حربا مع مملكة الجد مملكة الصيداويين الأشداء الظافرين دائما في حروبهم مع المؤابيين عبدة (لكموش) والعمونيين عبدة

(ملكوم) والفلسطينين عبدة (داجون). الله لا يكون في عون الخائنين الخارجين عن اتباعه؛ هاهم يجزرون نصف جند عبدة بعل الجدد من الإسرائيليين. حرب مهلكة قضت على خزائن الدولة ومواردها، حرب أهلكت البشر يتبعها قحط يدوم ثلاث سنوات ونصف السنة أهلك الدواب والشجر.

إيليا ينجز وعده ويحرق بالنار من فوق جبل الكرمل أنبياء البعل، تهرع أمك هربا من القحط والنار المحرقة إلى مغارة في أعلى جبل لتصعقها هناك وتقيم لها قبرا من حجر.

أليشع العائد إلى الله العلي المشفى من سموم الفراولة المهزوم في الحرب ستلقى حتفك أيها الخليفة الذي أعاد شعب الله إلى الله مع نبي الله إيليا. مملكتك المهزومة الداخل فيها الصيداويون العابثون كما يشاؤون . ستموت موتة طبيعية لأن الله وعد أعداءه بالموتة العصية؛ وسيأتي من يكمل المشوار.

هذا قبر الملك أخآب

الذي هلك سنة الغزو

داخل قصره .

شيده ابنه قبل موته

وهو لحد ناجز

ومضجع أبدي

لمن خان شعبه

واعترف له ولابنه بالخير.

المحتوى

القسم الثاني ... ٣٩

شركة الأمل للطباعة والنشر
(موريفيتلى سابقا)
ت: 23904096 - 23952496

سلسلة آفاق عربية

(زبد الزهو)

تضع أجنحة من الزهو، تقف في أعالي الجبال تلامس غيمة، قالوا عنك شقيق نجمة، قنديل علاء الدين بحوزتك، إبريق علي بابا بين يديك. تسبح في حبر الزيف تغرق في الزيف، تمد يدك، تحس بدغدغة، تقبض، يخرج من بين أصابعك زبد الزهو.



الثمن : ثلاثة جنيهات